

أحمد زكي باشا

ومخطوطات الإسكوريال

د. رشيد العفاقي

كتاب المجلة العربية

254

أحمد زكي باشا

ومخطوطات الإسكوريال

(1867 – 1934)

دراسة وتحقيق:
د. رشيد العفاقي

كتاب المجلة العربية
254

المجلة العربية

رئيس التحرير
محمد بن عبدالله السيف

الرياض. طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين). شارع المنفلوطي
هاتف: 4777943. 4767345 فاكس: 4766464
ص.ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com
info@arabicmagazine.com



ⓒ المجلة العربية، 1439هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العفاقي، رشيد
أحمد زكي باشا.. ومخطوطات الإسكوريال. / رشيد العفاقي .- الرياض، 1439هـ
128ص؛ 21×14سم.- (كتاب المجلة العربية؛ 254)
ردمك: 978-603-8204-33-7
1 - الأندلس- تاريخ 2 - إسبانيا- وصف ورحلات أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي 914.6804 1439 / 573

رقم الإيداع: 1439 / 573
ردمك: 978-603-8204-33-7

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تصدير

تُراثنا العربي حافل برجاله المُبْدِعين، لا رَيْبَ في ذلك. وإنْ ظلّ مُعْظم هؤلاء الرجال مجهولين أحياناً، لا سيما بالنسبة للأجيال الجديدة التي باتت مُطَلَّقة مع ماضيها، والتي جرفتها أودية الحداثة الغربية ورَمَت بها إلى شُطآن ثقافية غريبة بعيدة عن الأصول. وحتى إنْ وَجَدْنَا فئة من مُثقفينا قد بقيت مرتبطة بثقافتها القومية إلّا أنّ معرفتها ضيقة بأولئك الرجال المبدعين ورُبَّمَا لا تَتّسع حتى لبعض الأعلام البارزين.

لكن يُلاحظ في العقود الأخيرة انبثاق حركة أصيلة ترمي إلى التعريف بكل الذين كان لهم سهم في إغناء تراثنا العربي الإسلامي، وقد أنتجت هذه الحركة المباركة -التي تتولّاها حكومات ومؤسسات وأفراد- سَيْلاً من الكِتابات التي تُعَرِّف بأهل العلم العرب مِنْ مُنطلق أنّ الحياة الثقافية في أي بلد، وفي أي مرحلة من مراحل تاريخه، لا يُمكن أن تُعرف بشكل جليّ إلّا من خلال علمائه وإنتاجاتهم الأدبية والعلمية. إنّ عملنا في هذا الكتاب يدخل ضمن هذا الإطار.

في هذا الكتاب ستكون لنا وَقْفَة مع أصيل من أُصلاء الثقافة العربية الإسلامية، وَقْفَة مع رجل كان شعاره في الحياة: (ولي كُلَّ يَوْمٍ مَوْقِفٌ ومَقَالَة). إنّهُ العَلّامة أحمد زكي باشا المعروف بشيخ العروبة.

لقد كان هذا الرجل في زمنه أشهر من نار على عَلَم، ولذلك يجد القارئ ترجمته في العديد من الكتب والموسوعات، إلّا أنه مع ذلك لا تزال بعض

الجوانـب من خَدَماته وأعمالـه بحاجة إلى تجلية وزيـادة بيان. لقد عرفت بعض كتب زكي باشـا طريقها إلى المطابع في تاريخ مُبَكِّـر، ولكن بِحُكم أنه (آثر الصحافة اليومية على المجلات والتأليف) ظلّ كثير من إنتاجه المعرفي متناثراً في الجرائد غير مجموع إلى الآن.

لَـنْ نَدَّعِـي بأنّنا سنُحيط في هذا الكتاب بكل مَـا لم يُجمع من مقالات أحمد زكـي باشا، ولكننا سنحاول بقدر المستطـاع أن نبرز الخدمات التي أسداها لتراث الأندلس، سالكين في ذلك خُطّة ترمي إلى نشر بعض نصوصه في هذا الموضوع، كنصّ رحلته إلى الأندلس عام 1892م، وتقرير له عن المخطوطات العربية المحفوظة بخزانة الإسكوريال، ونصّ مقالته حول الأسماء والألقاب الأندلسية ذات الأصل الإسباني، وقد مهّدنا لذلك بفصل في التعريف بشيخ العروبـة وبإسهاماته في مجال تاريخ البـلاد الأندلسية التي كان أحمد زكي باشا هـو أوّل من أطلق عليها اسم: (الفردوس الإسلامي المفقود). يتقدّم كل ذلـك فصـل عن العلاقـات المصريـة الأندلسية وإسهـام أهل مصر في إحيـاء تراث الأندلس، هـذا (الإحياء) الذي كان فيه أحمد زكي باشا رَائِداً ومُؤَسِّساً على نحو ما سنرى في هذا الكتاب.

وإنّنـا نأمـل أن يجد القارئ في هذا الكتاب مـا يُفيد وينفع. حقّق الله الآمال وبلغنا المراد. والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

الدكتور رشيد العفاقي

طنجة 05/ 08/ 2017م

الفصل الأوّل

نُبذة تاريخية
عن علاقة أهل مصر بالأندلس

لأَهْـلِ مصْـرَ علاقةٌ قديمة بالأندلـس عرضنا بعضاً مـن تاريخها في كتابنا (زُقـاق القناديل.. حارة الأندلسيـين بالقاهرة)، وقد قُلْنا في أوّله إنّ القائد العربي الكبير عُقبة بن نافع الفهري، بَانيّ القيروان وفاتح المغرب، كان -هو ووالده نافع بن عبد القيس- أوّل مَن اختَطّ بِنَاءً في زُقاق القناديل بفسطاط مصر.

وهذا الزقاق هو الذي سيصير -فيما بعد- المكانَ المُفَضّل للإقامة لدى أهل الأندلـس الذين كانوا ينزلون مصر في طريقهـم إلى حجّ بيت الله الحرام. وفي عَـدَدِ من دُورِ هذا الزقـاق سيقطن بشكل دائم ثُلّة من نوابغ الأندلسيين الذين هاجروا إلى أرض الكنانة كأبي بكر ابن العربي، وابن جُبير البلنسي، وابن عربي المُرْسِيّ، وغيرهم كثير.

يذكـر الذهبي أنّ عُقبة بن نافع (شَهِدَ فَتْح مصر، واخْتَطّ بها)[1]. ومِنْ هُنَا فَعَائلة عُقبة بن نافـع الفهري هي عائلةٌ قُرَشِيّة مِنَ المهاجرين، نزلت مصر مـع الفاتحين وسكنـت الفسطاط حيـث سَيُشَيِّدُ عمرو بـن العاص مسجده المعـروف بـ(المسجد العتيق)، وقد نزلت العائلة تحديداً شرقيّ هذا الجامع، هُنَـا قَـامَ حَيٌّ عُـرِفَ بِاسْم: (زقـاق القناديل)، ويذكر ابن عبـد الحَكَم أنّ دارهـم في زقاق القناديل كَانـت تُعْرف بـ(دار الفهريين)، ثُمَّ قال (بَلْ كانت تلك الدار خِطّة عُقبة بن نافع).[2]

ومـن المعلـوم أنّ حفيـد عقبة بـن نافع الفهـري أصبـح سلطانـاً على بلاد الأندلـس، وقد حَكَمَهَا فترةً مـن القرن الثاني الهجـري، فَلَعَلّهُ لهذا السبب كان إقبـال الأندلسيين علـى السُّكْنى بزقاق القناديل حيـث اختطّ عقبة بن نافـع -جَدُّ أميرهم الأندلسـي- منزله الأوّل بمصر. وإذا كُنَّا لا نجزم برأي

---

(1) سير أعلام النبلاء، ج.3 ، ص.532

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ج.1 ، ص.113-126

مُحَـدّد في هـذه المسألـة، فَحَسْبُنَا في هـذا البحث أنّنا وجدنـا رَابِطاً قديماً يجمع الأندلسيين بزقاق القناديل أقدم أحياء القاهرة.

ونُشـير كذلـك إلى أنّ عقبة بـن نافع الفهري لـه متات قـويّ بالأندلس من خـلال أبنائـه وأحفـاده وأولاد أحفـاده، فهو جَـدُّ سلطان الأندلـس يوسف بـن عبدالرحمـن بن أبي عبيدة بن عقبـة بن نافع الفهري الـذي ولي حُكْم الأندلس ردحاً من الزمن.

ومِـنْ هُنا يجوز أن نُقَرِّر أن الأندلسيين كانـوا يُوصُون أبناء بلدهم الراحلين إلـى مصـر الفسطاط بالنزول في زقـاق القناديل الذي كانـوا يشعرون بأنّ ثمّـة علاقة (قَرابـة وبَلَدِيّة) تجمعهم به وبأهله، وذلـك من طريق بيت بني عقبة بن نافـع الفهري القرشي الذي تولّى أحد أفراده النبهاء -وهو يوسف بـن عبدالرحمـن بن أبي عبيدة بـن عُقبة بن نافع الفهـري- حُكْم الأندلس في وقـت مـن التاريـخ، إذْ يُحكـى أنّ هـذا الأمـير الفهري (مَهّـد الجزيرة (الأندلسيــة) كُلَّهَـا، وامتـدّت أيامه إلـى أن دخل عبدالرحمن بـن معاوية بـن هشـام الأمـوي الأندلس، فحـارب يوسف وهزمـه في ذي القعـدة سنة ثمان وثلاثين ومائة (138هـ)).[1]

وفي ترجمة هذا الأمير الأندلسي يقول المَقَّرِي:

«وجَـدُّهُ هو عُقبة بـن نافع صاحب إفريقية وباني القـيروان المُجَاب الدّعوة، صاحـب الغـزوات والآثـار الحميدة، ولهـذا البيـت في السّلطنـة بإفريقية والأندلس نَبَاهَة».[2]

ومـن المعلوم أيضـاً أنّ أهل مصـر كان لهم دَوْرٌ بارز في فتـح الأندلس، قال المقّري -نَقْلاً عن ابن حَيّان-:

(1) زقاق القناديل، ص.12-15

(2) نفح الطيب، ج.3 ، ص.25

«إنّ أوّل أسباب فتح الأندلس كان أنْ وَلّى الوليد بن عبدالملك موسى بن نُصير، مَوْلَى عمّه عبدالعزيز، على إفريقية وما خلفها سنة ثمان وثمانين (88هـ)، فخرج في نَفَرٍ قليلٍ من المطّوّعة، فَلَمَّا وَرَدَ مِصْرَ أَخْرَجَ معه من جندها بَعْثاً، وفعل ذلك في إفريقية، وجعل على مقدمته مولاه طارقاً، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم، حتى بلغ مدينة طنجة، وهي قصبة بلادهم وأُمّ مدائنهم، فحصرها حتى فتحها وأسلم أهلها».[1]

يُثبت هذا النص أنّ قِسْماً كبيراً من جيش مصر ساهم في فتح المغرب، وفي رواية ثانية: أنّ موسى بن نصير «لمّا ورد مصر أخرج معه من جندها بَعْثاً، وأتى إفريقية فأخرج من أهلها معه ذوي القوّة والجَلَد، وصَيَّر على مقدّمته طارق بن زياد، فلم يزل يُقاتل البربر ويفضّ جموعهم، ويفتح بلادهم ومدائنهم، حتى بلغ طنجة، وهي قصبة ملك البربر وأمّ مدائنهم، فحاصرها حتى افتتحها –وقيل: إنّها لم تكن افتُتحت قبله، وقيل: افْتُتِحَت ثم ارْتُجِعَت– فأسلم أهلها، وخطّها قيرواناً للمسلمين، ثمّ ساروا إلى مدائن على شطّ البحر فيها عُمَّالٌ لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها، ورأس تلك المدائن: سبتة، وعليها عِلْجٌ يُسَمّى يُلْيَان، قاتله موسى فألفاه في نجدة وقوّة وعدّة فَلَمْ يُطِقْهُ، فرجع إلى مدينة طنجة فأقام بِمَنْ مَعَهُ».[2]

ومن طنجة انطلق طارق بن زياد إلى فتح الأندلس عام 92هـ، ولا شك في أنّ جُنْدَ مصر الذين كانوا مع طارق في طنجة قد التحقوا بالجيش وأَبْلَوا البلاء الحسن في ذلك الفتح الأندلسي العظيم.

أمّا الفوج الثاني من المصريين الذين استوطنوا بلاد الأندلس، فقد قدموا مع أبي الخطّار حُسام بن ضرار الكلبي عندما عيّنه حنظلة بن صفوان،

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج.1 ، ص.230

(2) نفح الطيب، ج.1 ، ص.250

عامل الأمويين على إفريقية، أَميراً على الأندلس، فقد ركب إليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين ومائة (125هـ)، فَدَانَ له أهل الأندلس، وكان شجاعاً كريماً ذا رأي وحزم، إلّا أنّ الجموع البشرية التي جاءت معه، من أهل الشام وغيرهم، كانت كثيرة (لم تحملهم قرطبة، ففرّقهم (أبو الخَطّار) في البلاد، وأنزل أهل دمشق إلبيرة لِشَبَهِهَا بِهَا، وسَمّاها دمشق؛ وأنزل أهل حِمْص إشبيلية، وسمّاها حمص؛ وأهل قنسرين جَيّان، وسمّاها قنسرين؛ وأهل الأردنّ ريّة ومالقة، وسمّاهما الأردن؛ وأهل فلسطين شذونة -وهي شريش- وسمّاها فلسطين؛ وأهل مصر تُدْمِير، وسَمّاها مِصْر).[1]

ويبدو أنّ أهل مصر الذين استوطنوا إقليم تُدمير (Tudmir) (وهو الذي تُمَثِّلُه مدينة مُرْسِيَة (Murcia)) من الأندلس إنّما كان ذلك من اختيارهم لِمَا رَأَوْا في طبيعة هذا الإقليم من شَبَهٍ كبير ببلادهم مصر، قال المقّري:

«ومِنْ كُوَرِ الأندلس الشرقية: تُدْمِير، وتُسَمّى مصر أيْضاً لكثرة شبهها بها، لأنّ لها أَرْضاً يسيح عليها نهر في وقت مخصوص من السّنة، ثم ينضب عنها، فتزرع كما تُزرع أرض مصر، وصارت القصبة بعد تدمير: مرسية، وتُسَمّى: البُسْتَان، لكثرة جناتها المحيطة بها، ولها نهرٌ يصب في قِبْليها».[2]

من جانب آخر، فقد دخل الأندلس في زمن الفتح عدد من التابعين، وفيهم نجد مصريين، منهم: حِبّان بن أبي جبلة العبدريّ، قال المقّري في ترجمته:

«حِبّان بن أبي جبلة مولى بني عبد الدار، وكان في ديوان مصر، فبعث به عمر بن عبدالعزيز إلى إفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقّهوا أهلها، وكان روى عن عمرو بن العاص وابن عبّاس وابن عمر، وحَدّث عنه عبدالرحمن بن زياد بن أنعم وغيره، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس، وانتهى معه

(1) نفح الطيب، ج.1 ، ص.237.

(2) المقري، نفح الطيب، ج.1 ، ص.164.

إلــى حصن من حصون العَدُوِّ يُقال له: قرقشونة. وقيل: بل قفل إلى إفريقية فتــوفي بها بعد العشرين ومائــة (120هـ). وقال بعضهــم: إنّ بَيْنَ قرقشونة هذه وبين برشلونة مسافة خمسة وعشرين يوماً».[1]

ومنهم أيضاً: حنش الصنعاني، وهو -كما يقول المقري-:

«تابعــيٌّ جليل، كان مع عَلِــيّ رضي الله عنه بالكوفة، وقَــدِمَ مِصْرَ بَعْدَ قتله، فصار عداده في المِصْرِيِّين، وكان فيمن قام مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فَعَفَا عنه، وكفى الأندلس شَرَفاً دخوله لها».[2]

ومنهــم: زيد بن قاصــد السكسكي، ذكر المقري في ترجمتــه -نقلاً عن ابن الأبار- أنّه:

«تابعيٌّ، دخل الأندلــس وحضر فتحها، وأصله من مصر، يروي عن عبد الله بــن عمرو بن العاص رضي الله تعالــى عنه، وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، ذكره يعقوب بن سفيان، وأورد له حديثاً».[3]

ومع مرور الزمن سينبغ في الأندلس علماء من أصول مصرية، منهم: محمد بن بشير المعافري الذي خصّه المقري بترجمة، قال فيها:

«تــوفّي القاضــي محمد بــن بشير سنــة 198هـ قبــل الشافعيّ بســت سنين، ومحاسنــه -رحمه الله تعالــى- كثيرة، وقد استوفى ترجمتــه بقدر الإمكان القاضــي عياض في (المــدارك)، فليراجعها من أرادها، فــإنّ عهدي بها في المغرب. وقال بعض من عَرّف به مَا نصّه:

القاضي محمد بن بشير بن محمد المعافري، أصله من جُند باجة من عرب مصــر، وَلّاه الحكــم بن هشام قضــاء القضاة -الذي يُعَــبِّرُون عنه بالمغرب

(1) نفح الطيب، ج.1 ، ص.278.

(2) نفح الطيب، ج.1 ، ص.278.

(3) نفح الطيب، ج.3 ، ص.57-58

بـ(قضـاء الجماعـة)- بقرطبة، بَعْـدَ المُصعب بن عمران، ثـم صرفه ووَلّى مكانـه الفرج بن كنانة. وعن ابن حـارث، قال أحمد ابن خالد: طلب محمد بـن بشير العلم بقرطبة عند شيوخ أهلها حتى أخذ منه بحظ وافر، ثم كتب لأحـد أولاد عبدالملـك بـن عمر المرواني لمظلمـة نالته على وجـه الاعتصام بـه، وتَصَـرّف معه تَصَرُّفاً لطيفـاً، ثم انقبض عنه، وخـرج حَاجّاً، قال ابن الحـارث: وكتب محمد بن بشـير في حداثته للقاضي مصعب بن عمران، ثم انصـرف حَاجّاً، فَلَقيَ مالك بن أنس وجالسه وسمع منه، وطلب العلم أيضاً بمصر، ثم انصرف فَلَزِمَ ضيعته في بَاجَة».[1]

ومنْ أعـلام المصريين الدّاخلين إلى الأندلس: أبو محمد الطندتائي، تَرْجَمَ لَهُ المَقّري في (نفح الطيب)، فقال:

«أبو محمـد عبدالوهاب بن عبدالله بن عبدالوهاب، من أهل مصر، وسكن بغـداد، ويُعْـرَف بالطندتائي، قرية بمصر نُسِبَ إليهـا، روى عن أبي محمد الشارمساحـي، وتفقّه بـه، وقَدِمَ الأندلـس رسولاً بزعمه مـن عند الخليفة العباسي، فسكن مُرْسِيَة ودَرَّسَ بِهَا، وخرج منها سنة اثنتين وأربعين وستمائة (642هــ) بعد أن تملّكها النصارى صُلْحاً، وأُسِرَ بناحية صِقلية، ثم تخلّص ولَحِق ببلده، رحمه الله تعالى».[2]

وفي الفصل الذي خصّصه أبو العباس المقّري لتراجم الوافدين إلى الأندلس مِنَ المشرق مِنْ كتابه (نفح الطيب)، نَعْثُرُ على عدد من المصريين، منهم:

(إسماعيل بن عبدالرحمـن بن علي، القرشي، من ذرية عبد بن زمعة أخي سـودة أم المؤمنـين، رضي الله تعالى عنها، رحل مـن مصر إلى الأندلس في زمن السلطـان الحاكم المستنصر بالله أعوام السـتين وثلاثمائة حين ملك

(1) المقري، نفح الطيب، ج.2 ، ص.148

(2) نفح الطيب، ج.3 ، ص.64

بنو عبيـد مصر وأظهروا فيهـا مُعتقدهم الخبيث، فَحَـلّ يومئذ من الحَكَم المستنصـر مَحَلّ الرحب والسعة، ولَمَّا ثارت الدولة العامرية أَوَى إلى إشبيلية وأوطنهـا دَاراً، واتّخذهـا قَـرَاراً، وبهـا لَقِيَه أبـو عمر ابـن عبد البر علّامة الأندلـس، فَدَرَسَ عليـه، واقتبس مِمَّا لديه، وقد ذكره في تاريخ شيوخه، ولم يزل عَقِبُه بها إلى أن نَجَمَ منهم أبو الحسين سالم ابن محمد بن سالم، وهو مـن رجال (الذخيرة)[1]، ولَهُ نَثْرٌ كمـا تفتّح الزّهر وتدفّق البحر، ونَظْمٌ كَمَا اتّسق الدُّرّ وسفرت عن محاسنها الأوجه الغُرّ).[2]

وقـد تَقدّم القول إنّـه كان للمصريين سهم في فتح الأندلس، وأنّ جُند مصر اختـار بلاد تدمير (Tudmir) من الأندلس للاستيطان والاستقرار لِشَبَهِهَا بأرض مصـر. وتدمير هي التي اتّخذت فيما بعد اسم: مرسية (Murcia). وعَدَا مرسية نَجِدُ في الأندلس الكثير من الجغرافيا الشبيهة بمصر، قال أبو القاسم ابن الأبرش في مدح شنترين (Santarem) وحَاكِمِهَا:

رأيـــتُ ثـلاثـةً تحـكـي ثـلاثـاً

إذا مـا كنت في التشبيه تُنصف

فتاجو[3] النِّيل منفعةً وحُسْناً

وشَـنْتَرِين مصر، وأنـت يوسف[4]

وقد صار جمال مصر وحُسْنِها يُضْرب بهما المثل عند المغاربة والأندلسيين، يقول عبد المهيمن الحضرمي في مدح أحد الملوك:

---

(1) يُريد كتاب: (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بَسّام الشنتريني.

(2) نفح الطيب، ج.3 ، ص.69

(3) (تاجو) : نَهْرٌ يَمُرُّ بجوار مدينة شنترين (Santarem).

(4) نفح الطيب، ج.4 ، ص.111

ولا روضـــة بـالحـسـن طيبـة الـشـذا

يـنـم عـلـيـهـا إذخـــــر وجـلـيـل

وقــد أزكـيــت لـلـزهـر فـيـهـا مجامـر

تـعـطـر مـنـهـا لـلـنـسـيـم ذيـــول

وفي مـقـل الـنـوار لـلـطـل عـبـرة

تـــرددهــــا أجـفــانـهـــا وتجـيـل

بـأطـيـب مـن أخـلاقـه الـغـر كلما

تـفـاقـم خـطـب لـلـزمـان يـهـول

حـيـت أبـا الـعـبـد الإلـــه مـنـاقـباً

تـفـوت يـدي مـن رمـهـا وتـطـول

فـغـرنـاطـة مـصـر أنـــت خصيبها

ونـائـل يمـنـاك الـكـريمـة نِيل[1]

وقال ابن زمرك في مدح الغني بالله النصري سُلطان الأندلس:

لـك الحَسَب الـوضّـاح والـسـؤدد الـذي

يضيق نطاق الوصف فيه عن الحصر

تـشـرف أفـــقٌ أنـــت بـــدر كـمـالـه

فغرناطةٌ تختال تِيهاً على مصر

تـكـلّـل تـاج المـلـك مـنـك محـاسـنـا

وفـاخـرت الأمـلاك منـك بـنـو نصر[2]

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج.5 ، ص.467

(2) نفح الطيب، ج.6 ، ص.76

وعلــى العموم، فإنّ الأندلسيــين كانوا يُقَدِّرُون مصر وأهلهــا، بل إنهم كانوا يتباهــون بالانتمــاء إلى مصر، ومِمَّا يُقَدَّم مثالاً علــى ذلك مَا وَرَدَ في رسالة أديــب الأندلــس أبي بحر صفوان بــن إدريس التجيبي المرســي التي خاطب بهــا الأمير عبدالرحمن ابن السلطان يوسف بــن عبدالمؤمن بن علي، وفيها يُصَــوِّر تنافس عدد مــن الأمصار الأندلسية على الأمــير المذكور الذي عُيِّن واليــاً علــى الأندلس، فَـكُلٌّ واحدة منهن تُــبرز مَا لها مــن المحاسن الكفيلة بأحقّيتهــا بالأمير المذكور، والفقرة التي لها ارتبــاط مُباشر بموضوعنا هي قول الأديب الأندلسي على لسان حِمْص الأندلس، وهي إشبيلية (Sevilla):

«أنا مِصْرُ الأندلس، والنِّيل نهري، وسماء التأنّس والنجوم زهري».[1]

ليس من هدفي في هذه النبذة أن أعرض للوقائع السياسية التي مَسَّت أرض مصــر بداية من عهــد التأسيس المغربي، فقد تلتها حِقَــبٌ أصبحت العلاقة بين البلدين منقطعة، أو مطبوعة بالفتور الشديد، بسبب اختلاف المذهبين: الشيعــي الفاطمــي بمصــر، والسُّنِّــي المالكــي بالمغــرب والأندلــس، ولكنني سأتجــاوز هذه العصور التي تناولتها بعض الدراسات[2] إلى القرن الخامس الهجــري حيثُ بدأت ملامح ارتباط علْميّ واجتماعي تتشكّل بين مصر وبين الأندلــس ثُمَّ تنمو وتتطوّر مع مرور الزّمــن لاسيما بعد رجوع أهل مصر إلى التّمذهــب بمذهب أهل السُّنّة والجماعة، وتشاء الأقدار أنْ يرحل إلى مصر عدد من الأندلسيين للدراسة أو للاستقرار بها بعد أداء فريضة الحج، وهُمْ من الكثرة بحيث لا يحصرهم عدّ، وهذا ما أدركه المقري قديما حينما عزم على إحصائهم، قال في الباب الخامس من كتابه (نفح الطيب) الذي أفرده

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج.1 ، ص.170-171

(2) أحمــد عبداللطيــف حنفي، المغاربة والأندلسيــون في مصر في الإسلامية (من عصــر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي (21هـ-567هـ))، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة.2005م.

(في التعريف ببعض مَنْ رَحَل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق):

«اعْلَم -جعلني الله تعالى وإيّاك ممّن له للمذهب الحقّ انتحال- أَنّ حَصْرَ أهل الارتحال، لا يُمْكِن بِوَجْهٍ ولا بِحَال، ولا يَعلم ذلك على الإحاطة إلّا علّام الغيوب الشديد المحال، ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام، لطال الكتاب وكثر الكلام، ولكنّا نذكر منهم لُمَعاً على وجه التوسط من غير إطناب داعٍ إلى الملال واختصار مُؤَدٍّ للملام».[1]

وبَعْدَ أن سقطت الحواضر الأندلسية الكُبرى (قرطبة وبلنسية وإشبيلية) بيد القشتاليين والأراغونيين، تشتت شمل العديد من الأسر الأندلسية التي اضطرت إلى هَجْر وطنهم الذي عاشوا فيه، وعاش فيه أسلافهم قروناً عديدة، فَمِنْهُم من نزل أرض المغرب وَهُمْ الأكثرية، ومنهم من فضّل الرحيل إلى المشرق.

ولَمَّا كانت مصر مَهْوَى أفئدة الأندلسيين، فإنّ أغلبية النازحين من أهل الأندلس الذين هاجروا إلى المشرق قد اختارت أن تنزل مصر وتتّخذها دار إقامة.

وقد أحصينا المئات من الأندلسيين الذين لجؤوا إلى مصر، ليس هنا محل ذِكْر أسمائهم، ولكن حسبنا -على مستوى العلاقات الاجتماعية- أن نُشير إلى أنّ الأندلسيين كانوا يُسْتقبلون بالحفاوة في البلاد المصرية، من عامة المصريين وخاصّتهم، ويلقون من أهلها قبولاً، لاسيما إن كانوا من أهل العلم، ونُمَثِّلُ لذلك بشيخ القراء أبي القاسم الشاطبي، قال القسطلاني في ترجمته:

«ولَمَّا دخل مصر أكرمه القاضي الفاضل عبدالرحيم، وبالغ في إكرامه، ووَلّاه

---

(1) نفح الطيب، ج.2 ، ص.5

مشيخة الإقراء بمدرسته. فتصدّى فيها لإقراء القراءات واللغة والنحو وغير ذلك من العلوم النافعات، فاشتُهر اسمه، وبَعُدَ صيته، وانتهت إليه رياسة الإقراء، وعظم شأنه بين الورى وقصده الناس من الأقطار، فأفاض عليهم من سَيْبِ جُود عِلْمِه المدرار».[1]

ولعلّ من أغرب قصص العلماء الأندلسيين الذين نزلوا مصر، وعاشوا فيها إلى أن ضمّهم تُرَابُهَا، حكاية أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصّلت الإشبيلي (ت.520هـ) الذي عاش «ستُّون سَنَة، منها عشرون في بلده إشبيلية، وعشرون في إفريقية عند ملوكها الصّنهاجيين، وعشرون في مصر مَحْبُوساً في خزانة الكتب، وكان وَجَّهَهُ صاحب المهدية إلى ملك مصر، فَسُجِن بها طول تلك المُدّة في خزانة الكتب، فخرج في فنون العِلْم إمَاماً، وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين، وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته».[2]

ومن الأمثلة الشاهدة على إكرام المصريين لأهل الأندلس الذين نزلوا ديارهم، نأتي بِمَا صرّح به أبو عبدالله محمد بن محمد الراعي الأندلسي الغرناطي في كتابه (الأجوبة المرضية)، قال:

«لَمَّا سافرتُ إلى المغرب مِنْ مِصْر، وعُدْتُ إليها، فدخلتُ إلى المدرسة الصالحية، فَلَقِيَنِي صَبِيٌّ من صغار الكتاب بها، فحيّاني على الفور بقوله يُخاطبني: «آنستم ونوّرتم مكانكم». وخاطبني بعض أصحابنا المشايخ بها، بقوله: «هذه نِعْمَة غير مترقبة»، يعني رجوعي من المغرب إلى مصر، وكان معي تاجرٌ من خيار أهل الأندلس، فقلت له: «هؤلاء هم الذين يُرَغِّبُوني في سُكْنَى مصر»، فَحَفظَ الحكايتَيْن، وراح يُحدِّث عُلماء الأندلس بحلاوَة مشايخ مصر وفصاحة صبيان المكاتب بها».[3]

(1) القسطلاني، الفتح المواهبي في ترجمة الإمام الشاطبي، ص.44-45

(2) نفح الطيب، ج.2 ، ص.105-106

(3) الراعي، الأجوبة المرضية، ص.212

وأبو عبدالراعي الغرناطي راوي هـذه الحكاية (دَخَلَ القاهرة سنة 825هـ، وحـجَّ، واستوطنهـا، وأقـرأ بهـا، وانتفع بـه جماعـة، وأَمَّ بالمُؤَيِّدِيَّـة. ومَاتَ (بالقاهرة) يوم 17 رجب من سنة 853هـ).[1]

وعلـى ما يظهر، فإنّ أبـا عبدالله الراعي الأندلسي رَحَلَ عن الدنيا قبل نحو ثلاثـة عقود من سقوط غرناطة (آخر عاصمة للمسلمين بالأندلس) الكائن فجـر الثاني من ربيع الأوّل من سنـة 897هـ/ الثاني من يناير عام 1492م. وفي هذا التاريخ كانت مصر مُشتملة على جالية أندلسية معتبرة، استوطنتها منذ مَا قَبْل سقوط الحواضر الأندلسية الكبرى (قرطبة، وبلنسية، وإشبيلية (648هـ)) في القرن السابع الهجريّ.

ولَمَّـا غربـت شمـس الأندلـس العربيـة بخـروج المسلمـين منهـا، أوت إلـى أرض الكنانـة أفواجٌ جديـدة من المهاجريـن الأندلسيين، سكنـوا القاهرة والإسكندريـة وعدداً من بلـدات دِلْتَا النِّيل، واندمجـوا في المجتمع المصري المُتَعَـدِّد الأصول في عصور المماليك ثـم العثمانيين، وهي عصور غلب عليها طابـع الركود، وبهت فيها أثر الأندلس في حيـاة المصريين العامّة إذْ لم يعد ذلـك الأثر يُرَى ويُسْمَع إلّا في نُتَف من اللهجة المصرية وفي بعض العادات أو في أنواع من الطّرب والمآكل وغِناءِ الموشحات.

علـى أنّ هذا السُّبَـات الذي خَيَّم علـى حياة عامة المصريـين لبضعة قرون سينجلي مع مطالع عصر النهضة الأوربية، فقد الْتَفَتَ علماء القارة العتيقة إلى تراث الشرق العربـي المكتوب، وعملوا على اقتناء مخطوطاته، وشجّعوا تِجارته، فنشطت عمليات استنساخ الكتب العربية العلمية والأدبية، وقد كان جزء منها يتعلق بالغرب الإسلامي.

---

(1) التنبكتي، نيل الابتهاج، ص.530

وهكذا انتبه المصريون من جديد إلى قيمة التراث الأندلسي الذي تحتفظ به العديد من خزائن الكتب بالقاهرة والإسكندرية وبغيرهما من بلدات مصر التـي نزلت بها جالية أندلسية كبـيرة نِسْبِيّاً، فَصَرَفُـوا عنايتهم إلى جَمعه وصيانته، وقد ظلت تلك العناية متواصلة إلى زمن ظهور المطابع التي جاءت مـع الحملة الفرنسية علـى مصر، فتوجّهت الأنظار إلـى الخزائن المصرية التـي كانت تزخـر بالكتـب الأندلسية كمكتبـة الجامع الأزهـر ودار الكتب الخديويـة والخزانات الخاصـة التي تمتلكها بعض الأسـر العلمية العريقة، ولّمـا رحلـت جيوش بونابارت عن مصـر قامت مطبعة بـولاق الشهيرة بِدَوْرٍ فَعّـال في تنشيط الحركة العلمية بالبلاد المصرية، وقد كان لها فضل السبق ومَزيـة الريادة في طبع كُتُب الأندلسيين كـ(المخصص) لابن سيده، و(شرح مقامات الحريري) للشريشي، و(قلائد العقيان) لابن خاقان.

ثـم تناسلت المطابـع في الديار المصرية، فـكان تراث أهـل الأندلس الأدبي والتاريخـي في طليعة ما أنتجته مطابع القاهرة التي سَنّت سُنّة حميدة وهي أنها كانت تَعْهَدُ بتحقيق المخطوطات الأندلسية وتخريج نصوصها إلى عُلَماء جهابـذة من أهـل الإتقـان، كان لَهُمْ القِـدْح المُعَلّى في التصحيـح والضّبط اللُّغَـوِيّ، فمن مطابع القاهرة خـرج لأوّل مرّة كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلـس الرطيب) لأبـي العباس المقـري، وكتاب (ألف بـا) لأبي الحجاج البلـوي المالقي، وكتـاب (مُحاضرة الأبرار ومسامـرة الأخيار) لابن عربي، وكتـاب (الفتوحات المكية) له أيضاً، و(كتـاب الأخلاق والسير) لابن حزم، وغير ذلك من الأصول الفكرية والثقافية للحضارة الأندلسية.

ومـن الجديـر بالذِّكْر أنّ هذه العناية لم تنبثق مـن لا شيء، وإنّما لها جذور تمتـد إلى تلك العلاقة القديمة التي ربطت أهل مصر بالأندلس، ثم تعزّزت بقسـم من الأندلسيين هُجِّرُوا من وطنهم ولجـؤوا إلى مصر التي اختاروها

مَوْطِنـاً للعيش والاستقرار الدائم بعد أن فقـدوا الأمل في استرداد الأندلس والعـودة إلـى ديارهـم، ويُمكن القـول إنَّ شُعاعـاً من ذلك الأمـل بقي عند طائفة من الأحفاد مُتَجَلِّيـاً في عنايتهم ووَلَعِهِم بِكُتُب أسلافهم الأندلسيين، يقرؤونها ويجهدون في طبعهـا ونشرها، وكان وراء ذلك رجالٌ أَسْدَوْا خدمة جليلة للتراث العربي الإسلامي سنأتي على ذِكْر أسماء بعضهم بعد قليل.

ثم تأسّست الجامعة المصرية مع مطالع القرن العشرين، فاحتلت مادة تاريخ الأندلس وآدابها مكانة معتبرة في مقرراتها الدراسية، وبالتالي ظهرت إلى الوجود كوكبة من الباحثين صرفوا هِمَّتهم نحو حضارة (الفردوس المفقود) وما لبثوا أنْ أغْنَوا حقل (الأندلسيات) بعدد من الدراسات المُتَمَيِّزة المُبَكِّرة.

وفي مجـال (الأندلسيات المصرية) دائماً، سطعت نباهة المصريين في أبهى حُلّـة حين فكّر قـادة الفكر بمصـر أن ينقلوا عنايتهم بـتراث أهل الأندلس وتاريخهـم وحضارتهم إلـى جغرافية الأندلس، وذلك حـين تأسّس (المعهد المصـري للدراسات الإسلامية) بمدريـد (Madrid) سنة 1945م بمُبادرة من عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين عندما كان يتولّى وزارة المعارف، ثـم شرع المعهد في إصدار مجلة سوف تنشر فيضاً من الدراسات التاريخية حول الأندلس باللغتين العربية والإسبانية.

وأخـيراً، لا ينبغي أن ننسى الإسهام الكبير لمعهد المخطوطات العربية، الذي أُنشـئ في القاهرة سنـة 1955م، في نشر نصوص أندلسيـة بالغة الأهمية، سواء على صفحات مجلة المعهد أو في كتب مستقلة.

وانطلاقـاً من هـذا التراكم المعـرفي الأندلسي الـذي شَيَّدَهُ ثُلّـة من أعلام الديار المصريـة يحقّ لنا أن نتكلم عن (المدرسة المصرية في تحقيق التراث الأندلسـي)، لقد كانت بحقّ مدرسة رائـدة ومتميزة بكل المقاييس، ولا شك

أيضـاً أن الدّور الذي قام بـه أساتذة جامعات القاهرة والإسكندرية في بناء هذا الصّرح الزاهي جدير بالإعجاب.

فَمِـنْ أبناء مصـر العُلَماء الذين ساهموا بقسط وافر مـن العناية في إحياء الأَندلس عَـبرَ نَشْـر نصوص تاريخهـا وآدابهـا وفنونها، نذكـر على سبيل التمثيل لا الحصر:

أحمـد زكي باشـا، وأحمـد عمر المحمصـاني، وعِـزّت العطّـار الحسيني، وعبدالقـادر القـط، ومصطفـى السقا، وإبراهيـم الأبيـاري، وعبدالعزيز الأهـواني، وحسـين مؤنس، ومحمد عبدالله عنان، وأحمـد مختار العبادي، وسيـد غـازي، وشوقـي ضيـف، ومحمود علـي مكـي، وعبدالعزيـز سالم، وعبدالرحمـن بدوي، وكمال شبانـة، والطاهر أحمد مكـي، وصلاح فضل، وحسـام أحمـد مختـار العبـادي، وسَحَر عبدالعزيـز سالم، وفـوزي سعد، وعبداللطيف عبدالحليم، وغيرهم كثير.

وإذا وسّعنـا دائرة الاهتمـام المصري بالتراث الأندلسـي المُمْتَدّ إلى ما بعد سقـوط غرناطة، فإنّه لا بُدّ من الإشـارة إلى الإسهام الطيب للدكتور جمال عبدالرحمـن في نشـر نصوصـ تتعلق بتاريـخ الموريسكيـين وحياتهم المليئة بالمِحَـن والمآسـي، وبالنضال والتحـدي أيضاً، وذلك من خـلال الاضطلاع المُبَاشر بترجمة نصوص أصلية، أو الاكتفاء بدور الإشراف على أعمال فريق من المترجمين المصريين المعتنين بالنصوصـ القديمة للتاريخ الموريسكي أو بالدراسـات الحديثة لباحثين إسبان مشهود لهم بالكفاءة والدِّقّة والضبط، كل ذلك ضمن مشروع المركز المصري القومي للترجمة.

إنّ الـكلام على كل الجهود التي بذلها المصريون في هذا المجال طويل جداً، كما أنّ إبراز الخدمات التي أسدوها لرفعة شأن التراث الأندلسي في الوطن العربـي والإسلامـي لا تسعه إلّا الأسفـار الكثيرة، ولذلـك سنكتفي في هذا

الحَيِّـز بإبراز إسهام رجل واحـد من أهل مصر في نشر الـتراث الأندلسي وتوسيع نطاق البحث فيه وجمع المخطوطات العربية التي خَلّفها الأندلسيون وانتهـت بها الرحلـة إلى الاستقرار بأحد خزائن الكتـب العامة أو الخاصة، وهذا الرجـل هو العَلّامة أحمد زكي باشا، المعروف بشيخ العروبة. وقد كان منطلـق اهتمامي بتاريخ هذا الرجـل العَلّامة هو حينما عثرتُ في دار الكتب المصريـة بالقاهرة على تقرير عن الكتب العربيـة بخزانة الإسكوريال حُرِّر بالقاهـرة في 25 مايـو سنة 1893م، مُوَقَّعاً باسـم: (مُترجم مجلس النظار أحمـد زكي)، ومن المعلوم أنّ صاحب هذا الاسم كان في زمنه أشهر من نار على عَلَم، فقد كان أحد أركان النهضة العلمية بمصر طوال عقود، وقد برز خاصّة في ميدان تحقيق التراث العربي الإسلامي، وقبل أن نعرض لترجمته ببعض التوسّع، نقـرأ شهادة في حقّ شيخ العروبة كَتَبها الأستاذ عبدالسلام هارون -وناهيك به شاهداً في هذا الباب-، قال:

«ولعـلّ أوّل نافـخ في بـوق إحيـاء الـتراث العربي علـى النهـج الحديث هو المغفـور له أحمـد زكي باشا الذي قام بتحقيق كتابـيِّ (أنساب الخيل) لابن الكلبـي، و(الأصنام) لابن الكلبي أيضاً، وقد طُبعا في المطبعة الأميرية سنة 1914م باسـم (لجنـة إحيـاء الآداب العربية) التي عرفـت فيما بعد باسم (القسـم الأدبي). ولعـلّ هذين الكتابين، مع كتاب (التـاج) للجاحظ الذي حقّقـه أيضاً، مـن أوائل الكُتب التـي كُتِب في صدرها كلمـة (تحقيق). كما أن تلـك الكتب قـد حظيت بإخراجها على أحدث المناهـج العلمية للتحقيق، مـع استعمال المكملات الحديثـة من تقديم النص إلى القـراء، ومن إلحاق الفهارس التحليليـة. يُضـاف إلى ذلك أنـه أوّل من أشـاع إدخال علامات الترقيم الحديثة في المطبوعات العربية، وألّف في ذلك كتاباً سَمّاه: (الترقيم في اللغة العربية) طُبع في بولاق في زمن مبكر جِدّاً هو سنة 1913م».[1]

(1) عبدالسلام هارون، قطوف أدبية، ص.39-40

الفصل الثاني

شيخ العروبة أحمد زكي باشا..
حياته وآثاره

أَفْـرَدَ له الأستاذ أنور الجنـدي كتاباً في سِيرَته نُشِر ضمـن سلسلة (أعلام العـرب) سنـة 1963م، وقد ذكـر في أوّله أن شيخ العروبـة أحمد زكي باشا تـوفي عام 1934م، وأنّه على جلالـة قدره في العِلْم بقيت حياته غير معروفة لدى قطاع كبير من المهتمين بالثقافة العربية، قال:

«لم تُكتـب عنه إلّا كلمات قليلة بعد وفاته مباشـرة، ثم مضت هذه السنوات دون أن يذكـره ذاكر، وانطوت آثاره التي لم يستكملهـا، فلم يُعْنَ بها أحد أو يبحـث عنها، وكل هـذا دفعني إلـى أن أرفع الركام والـتراب عن وجه هذا الباحـث العـالم، الذي ظلّ يكتـب ويخطب ويُحاضر أكثر مـن أربعين عاماً، وكان مرجعـاً لكل باحث أو سائـل، وكان بيته قبلة كل رائد من العرب أو من أهل المشرق والغرب».[1]

وإذا كان كتـاب الأستاذ أنـور الجندي المذكور يُعتبر في نظر الدارسين أوسع مـا كُتب عن شيخ العروبة لحد الآن، فإنّ ذلـك لا يمنع من القول إنه ثمّة في الموضـوع كتابات ظهرت قبل كتاب الأستاذ أنور الجندي وخصّت أحمد زكي باشا بتعريف مستفيض بوّأته المكانة اللائقة به ضمن أركان النهضة الأدبية في مصر وفي الوطن العربي.

وعموماً، يجد القارئ التعريف بأحمد زكي باشا في غير ما كتاب، فقد ترجم له وذَكَرَ بَعْضَ أخباره عدد من أهل القلم، منهم[2]:

جـاك تاجر[3]، والأب فردينان توتل[4]، والجُنديان: أدهم[5] وأنور[6]، ويوسف

(1) أنو الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.5-6

(2) هذه القائمة مُستقاة من مراجع أنور الجندي (أحمد زكي، ص.303-305).

(3) - جاك تاجر، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر. ط. القاهرة.1646م.

(4) - فردينان توتل، المنجد في الأدب والعلوم، (ط.18) بيروت.1956م، ص.234

(5) - أدهم الجندي، أعلام الأدب والفن، ط. دمشق.1957م، ج.2 ، ص.456-457

(6) - أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، سلسلة أعلام العرب، رقم: 29، منشورات وزارة الثقافة والإرشـاد القومي - المؤسسـة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعـة والنشر - القاهرة.1946م

أسعد داغر[1]، وإلياس زخورة[2]، وخير الدين الزركلي[3]، ويوسف سركيس[4]، وأحمد شفيق باشا[5]، وفيليب طرازي[6]، وطاهر الطناحي[7]، وأحمد عطية الله[8]، وفؤاد فرج سليمان[9]، وإدورد فنديك[10]، وعمر رضا كحالة[11]، ومحمد كرد علي[12]، وسامي الكيالي[13]، ومحمد صبري[14]، والأمير شكيب أرسلان[15]، وتوفيق اسكاروس[16]، وفارس بشر[17]، والشيخ محمد الغنيمي

(207 صفحات).

- أنور الجندي، أعلام وأصحاب أقلام، ط. القاهرة (د. ت.)، ص.31-38

(1) - يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية، بيروت.1956م، ج.2 ، ص.422-426

(2) - إلياس زخورة، مرآة العصر في تاريخ ورسوم أكابر الرجال في مصر، القاهرة.1897م، ص.151-152

(3) - خير الدين الزركلي، الأعلام، ط.3 - بيروت.1969م، ج.1 ، ص.122-123

(4) - يوسف سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة.1928م، ج.1 ، ص.971

(5) - أحمد شفيق باشا، مذكراتي في نصف قرن، ط. القاهرة. (ج.1-2).

(6) - فيليب طرازي، خزائن الكتب العربية في الخافقين، بيروت.1948م، ج.1 ، ص.205

(7) - طاهر أحمد الطناحي، على فراش الموت، القاهرة.1939م، ص.163-169

- طاهر أحمد الطناحي، ألحان الغروب، ط. القاهرة.1934م، ص.172-179

(8) - أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، مصر.1963م، ج.1 ، ص.37

(9) - فؤاد فرج سليمان، الكنز الثمين، ص.92-106

(10) - إدورد فنديك، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، ط. القاهرة.1896م، ص.176، 183، 252، 277، 417، 457-458، 513.

(11) - عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ط. دمشق.1957م، ج.1 ، ص.225-226

(12) - محمد كرد علي، الخزانة الزكية أو مجموعة كتب أحمد زكي باشا، مجلة (المقتبس)، المجلد 5، سنة 1910م، ص.789 ؛ والمجلد 7، سنة 1912م، ص.404، 593.

- محمد كرد علي، الأحمدان المصريان المحدثان، جريدة (الأهرام)، عدد يوم 12/ 1/ 1938م.

- مجلة (التمدن الإسلامي)، ج.4 ، ص.87-89 ، 121-123

(13) - سامي الكيالي، الراحلون، القاهرة. (د. ت.)، ص.29-41

(14) - محمد صبري، الشوقيات المجهولة، القاهرة.1962م، ج.2 ، ص.98-99

(15) - شكيب إرسلان، أحمد زكي باشا، جريدة (الجهاد)، عدد يوم 14 ذي القعدة 1353هـ/1934م.

(16) - مجلة (البلاغ)، عدد يوم 20 / 1 / 1935م.

(17) - فارس بشر، أحمد زكي باشا.. العالم الرجل، مجلة (المقتطف)، عدد 58، سنة 1934م، ص.153-156

التفتازاني[1]، والشيخ رشيد رضا[2]، والدكتور زكي مبارك[3]، وجميل صدقي الزهاوي[4]، وأحمـد حسن الزيات[5]، وسلامة موسـى[6]، ويوسف شخت[7]، وعبدالرحمن شهبندر[8]، وحمدي عبدالحميد[9]، وأحمد فهمي العروسي[10]، وأحمد عيسى[11]، وفارس نمر[12]، والأب ماري أنسطاس الكرملي.[13]

ويمكـن للقـارئ أن يرجع إلى هـذه الكتابات لتعميق معرفتـه بشيخ العروبة أحمد زكي باشا، ونحن نكتفي في كتابنا هذا بالإتيان بالترجمة التي عقدها له خير الدين الزركلي في (الأعلام)، فهي من النوع الموفي بالقصد، قال:

«أحمد زكي بن إبراهيم بن عبدالله، شيخ العروبة: أديب بَحّاثة مصري، من كبار الكُتّاب. وُلِد بالإسكندرية، وتخرّج بمدرسة الإدارة والحقوق بالقاهرة، وأتقـن الفرنسيـة، وكان يفهـم الإنكليزيـة والإيطاليـة، وله بعض المعرفة باللاتينيـة. عُيِّن مترجماً لمجلس النظار، فسكرتيراً ثانيـاً، فسكرتيراً أوّل.

---

(1) – جريدة (الأهرام)، عدد يوم 19/ 1/ 1935م. وعدد يوم 20/ 1/ 1935

(2) – مجلة (المنار)، المجلد 34.

(3) – مجلة (البلاغ) المصرية، عدد تموز 1934م.

(4) – جميـل صدقـي الزهـاوي، قصيدة في رثاء أحمد زكـي باشا، جريدة (الأهرام)، عـدد يوم 30 / 7 / 1934م.

(5) – أحمـد حسـن الزيات، أحمد زكي باشا، مجلـة (الرسالة)، ع.2 ، سنـة 1934م، ص.1161-1163، 1201-1202، 1241-1242

(6) – المجلة الجديدة، السنة 3.

(7) – مجلة (المستمع العربي)، سنة 1944م.

(8) – عبدالرحمن شهبندر، ابن العَمّ زكي باشا، مجلة (الهلال)، عدد 43، سنة 1934م، ص.385-388

(9) – مجلة (السياسة الأسبوعية)، عدد يوم 7 آب 1926م.

(10) – جريدة (الأهرام)، عدد يوم 19 / 1 / 1935م.

(11) – جريدة (الأهرام)، عدد يوم 16 / 11 / 1934م.

(12) – جريدة (الأهرام)، عدد يوم 21 / 7 / 1934م.

(13) – مجلة (لغة العرب)، مجلد 6، ص.229، 304، 322.

– الرسائـل المتبادلـة بين شيخ العروبـة أحمد زكي باشـا والأب أنستاس ماري الكرملي. حققهـا وعلق عليها: حكمت رحماني. منشورات شركة نوابغ الفكر – القاهرة.1434هـ/2013م.

ومُنح لقب (باشا)، واتصـل بعلماء المشرقيات، ومثَّل مصر في مؤتمراتهم. وقام بفكرة إحياء الكتب العربية، فطبعت الحكومة المصرية عدة مخطوطات تولّـى هـو تصحيحها ومراجعتهـا. وأحكم صلته برجـالات العرب في جميع أقطارهم، وتَسَمَّى بـ(شيخ العروبة). وجمع مكتبة في نحو عشرة آلاف كتاب ووَقَّفَهَـا، فَنُقلـت بعد وفاته إلى دار الكتب المصريـة. سألته عن أصله فقال: «عربـي، من بيـت النجار، من عكا». ومـا كان يريد أن يُذكـر هذا عنه وهو حـيّ. قال الأمير شكيـب أرسلان في وصفه: «كان يقظـة في إغفاءة الشرق، وهَبَّـة في غفلة العالم الإسلامي، وحياة في وسط ذلك المحيط الهامد». توفي بالقاهـرة، ودُفن في قبر أعدّه بنفسـه لنفسه في الجيزة. وكان شُعلة نشاط، حلو العشرة، دائم الحركة، خطيباً، ضعف سمعه في أعوامه الأخيرة.

- من كتبه :

(السفـر إلـى المؤتمـر)، (موسوعات العلـوم العربية) (رسالـة)، (أسرار الترجمـة)، (قاموس الجغرافيـة القديمـة)، (الدنيا في باريسـ)، (ذيل الأغـاني)، (مصـر والجغرافيـا) (مترجم عـن الفرنسيـة)، (التعليم في مصـر)، (أربعة عشر يوماً سعداء في خلافة الأمير عبدالرحمن الناصر)، (نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام)، (الرق في الإسلام)، (تاريخ المشرق)، (قبيل الإعدام)، (عجائب الأسفار في أعماق البحار).

وله رسائل ومقالات كثيرة بالعربية والفرنسية، نُشرت في الصحف والمجلات، وهـي جديرة بأن تُجمـع وتُطبع. وكان يعتمد في مراجعاتـه على (جُزَازَات) رتّبهـا على الحروف كالفهارس، في موضوعات مختلفة: في الأدب والتراجم والتاريـخ والجغرافيـة، دوّنها في أثنـاء مطالعته للكتـب القديمة والحديثة. ولاتزال هذه (الجُزَازَات) محفوظة في (بيت العروبة)».[1]

(1) خير الدين الزركلي، الأعلام، ج.1 ، ص.126-127

الفصل الثالث

علاقة أحمد زكي باشا بالأندلس

علاقــة أحمد زكي باشــا بالأندلس، بَلْ قُــلْ عشقه وهيامه بــتراث الأندلس تاريخاً وحضارةً وأعلاماً، حَدَّث به كُلُّ من عاصر الرجل، وسَطَّرَهُ غير واحد مــن الذين ترجموا له، وفيمــا خلّفه شيخ العروبة نفسه مــن أبحاث وتآليف تكفي للدلالة على أن التراث الأندلسي كان له منزلة سامية في قلبه وعقله.

ومــن الجديــر بالذكر أن هــذا الرائد المصــري الأندلسي الهــوى أصله من المغرب، من بيت (النَّجَّــار)[1] الأندلسي، قدم أهله من المغرب واستقروا في عكّا[2] بفلسطــين، ثم انتقل والده إلى مصر وتزوّج فيها والدته[3]. ومن هنا، فإنّ اهتمام شيخ العروبة بالأندلس هو من باب العناية بالأصول والجذور.

ويذكــر العَلّامة أنور الجندي أنّ أحمــد زكي باشا «هو أوّل مصري عربي في العصــر الحديث زار الأندلــس وأطلق عليها ذلك الاسم الــذي اشتهرت به من بعد: (الفردوس الإسلامي المفقود)».[4] ولعــلّ إطلاقه هذا النعت على الأندلــس راجع إلى أنه وقف في آثــار الأندلسيين على ما يدل أن هؤلاء كانوا يَــرَوْنَ بلادهم جنّة علــى الأرض، فكلامه ليس إلّا صــدى للشّاعر الأندلسي إبرهيم ابن خفاجة الذي قال:

إنّ لــلــجــنــة بــالأنــدلــس
مجــتــلــى عــين وريــا نــفــس
فــســنــا صــبــحــتــهــا مــن شــنــب
ودجــا لــيــلــتــهــا مــن لــعــس

(1) (آل النجــار) مــن البيوتات الأندلسية التي نزحت إلى المغرب واستقــرت بمدينة سلا المجاورة للعاصمة الرباط.

(2) عنــد أنور الجنــدي (يافا)، وقد اعتمدنــا (عكّا) استناداً إلــى خير الدين الزركلي الــذي استفاد ذلك مُباشرة من شيخ العروبة.

(3) أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.12، 286 ؛ الزركلي، الأعلام، ج.1 ، ص.126–127

(4) أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.4، 15، 98–99

فـــــإذا مـــا هــبــت الـــريـــح صـبـا

صـحـتُ وا شــوقـي إلى أندلس[1]

وللشاعر نفسه يتغنّى بجمال الأندلس :

يـــا أهـــــل أنــدلــــس للّه درّكـــم

مــــاء وظـــل وأنـــــهــــار وأشـــجــار

مــا جـنــة الخُــلــد إلا في ديــاركـم

وهـــــذه كُـنــت لــو خُــــيِّرت أخــتــار

لا تـتـقـوا بـعـدهـا أن تـدخـلـوا سـقـرا

فليس تـدخـل بـعـد الجـنـة النار[2]

كانــت أوّل زيــارة لشيــخ العروبة إلــى الأندلس لَمَّــا انتُدب لتمثيــل الحكومة المصريــة في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد بلنــدن في شهر غشت من سنة 1892م. ويمكــن أن نقرر بدايــة أنّ العلّامة أحمد زكي باشا كان يتشوق إلى زيــارة الأندلس ولكن التزامات الوظيفة كانت تمنعــه من حجز وقت للسفر إليهــا، إلى أنْ تقرر مشاركــة مصر في المؤتمر المذكور، إذ ذاك اهتبلها شيخ العروبة فرصة ليتقدم إلى حاكم مصر بطلب يسمح له بأنِ يُعَرِّجَ على البلاد الأندلسية في رحلة الإياب للوقوف على آثار العرب بها، فَأَذِنَ له بذلك.

لقــد كانــت الأندلس هي الهــدف الرئيس للرحلة بحسب مــا صرّح به أحمد زكــي باشا نفسه في كتابــه (السَّفَر إلى المؤتمــر)، و(الغاية المقصودة) كما ورد صراحة في التصدير الذي يَسبق مُلَخَّص الخطبة المؤتمرية التي ألقاها شيــخ العروبة في المؤتمر الدولي التاســع للعلوم الشرقية بلندن يوم الخميس

(1) ديوان ابن خفاجة، ص.136 (88)

(2) ديوان ابن خفاجة، ص.364 (301)

8 سبتمبر سنة 1892م، وهو التصدير المنشور في (الوقائع) (الجريدة المصرية الرسمية) في عددها ليوم 13 مارس سنة 1893م. وقد قُدِّمَ لهذه الخطبة بنصّ عنوانه: (حضرة أحمد زكي أفندي في المؤتمر التاسع للعلوم الشرقية بلوندرة).

والنص يُلَخِّصُ رحلة شيخ العروبة إلى المؤتمر المذكور، ومِمَّا جاء فيه أنه لَمَّا انقضت جلسات المؤتمر عاد أحمد زكي باشا (إلى فرنسا وأقام بباريس أكثر من شهر درس فيه أحوال مَدَنِيّتها وعلومها وآثارها كما ينبغي، ثم تَنَقّل في بعض مدنها الشهيرة، وخرج منها قاصداً بلاد الأندلس (إسبانيا) فلبث بها مدة لاقى فيها أعاظمها وعلماءها وبعض وزرائها، ثم تَوَجّه إلى بلاد البرتغال ولاقى جلالة ملكها وزار بعض مدائنها وبعض حصون العرب الباقية على قُلل الجبال إلى الآن، ثم رجع إلى البلاد الأندلسية لأنها هي تقريباً الغاية المقصودة من تلك الرحلة، وتَشَرّف بمقابلة ملكة الأندلس مقابلة خصوصية، ولبث في الأندلس ونواحيه ومدنه العربية أسابيع قضاها كلها في البحث وإمعان النظر في نفائس الكتب والآثار الموجودة هناك).

ثم تذكر مُقَدِّمَة الخطبة أنّ شيخ العروبة قَدِمَ إلى مصر في 14 فبراير سنة 1893م، وأنه تَشَرّف بمقابلة الجناب الخديوي مقابلة خصوصية (وفي أثناء هذه المقابلة رفع حضرته إلى المقام الكريم ما أرسله بعض علماء إسبانيا معه من الكتب العربية المطبوعة هناك هدية للجناب الفخيم، وقدّم مجموعة صُوَر قصر الحمراء الشهير الذي هو أعظم أثر للعرب قائم في بلاد الغرب، شَاهِدٌ بما لهم من ضخامة الملك وعظيم العمران فلم يوجد له نظير بين أولئك الأمم إلى الآن على ما برعوا فيه من الاختراع وتقدمهم في المدنية والعلوم. وفي آخر هذه المجموعة صورة تسليم غرناطة من آخر ملوك العرب وهو أبو عبدالله من بني نصر إلى الملك فردينند وزوجته إيزابلا الملكة. وقد

كان حضرتــه في أثناء عرض هــذه الصور وتقديم تلــك الهدايا يشرح حال الأندلــس وما عثر عليه من آثار العرب وكتبهــم ولغتهم وعلومهم وأخلاقهم بدقة أبحاثه هنالك وطول معاشرته لكبراء الباحثين من الإسبانيين).

وتختــم هذه المقدمة بالقــول إنه في نهاية المقابلة أطلق شيــخ العروبة لسانه (بِشُكْـر وليّ النِّعَم الأكــرم الذي أَنْعَمَ عليه بهــذه المأمورية العلمية الجليلة، وأُتيــح له بسببها الوصول إلى تلك الغاية الحميــدة وأَجَلّها عِلْمه بحالة بلاد الأندلــس أيام العرب وما آلت إليــه بعد صيرورتها إلى الإسبانيين، فإنه قبل أن يسافــر إلى ذلك المؤتمر عرض على الجانب العالي حفظه اللّه أن يذهب إلــى إسبانيا وهو عائد إلى مصــر ليستفيد من البحث فيها ويدرس أحوالها القديمــة والحديثة ويقابل بين تمدنها في الحالتين، فَأَذِنَ له جنابه الفخيم، فكان ذلك من أجلّ النعم).[1]

إذن، كان عــام 1892م تاريــخ أوّل تعرّف مُباشر لأحمد زكي باشا بجغرافية الأندلــس، وقبل أن تطأ قدمه أرضها لم يفته –وهو لا يزال في مؤتمر لندن– أن يُنَــوِّه أمــام حشد من المستشرقــين بعناية أهل الأندلــس بالعلوم والآداب والفنــون.[2] ويقــول العلّامة أنــور الجنــدي: «إنّ زيارته للأندلــس هي التي فتحــت أمامه آفاق الحماسة للتراث العربي، وأوقــدت في نفسه تلك الشعلة الروحيــة من أجــل الدفاع عن أمجاد العــرب والإسلام. وكانــت رحلته إلى إسبانيا لزيــارة آثار العرب في الأندلس ذات أثر بعيد بلغ أعماق نفسه، فقد عاشــ حياته كلها يخفــق قلبه بذكر الأندلس، ويجري قلمــه باسمها، مُعَدِّداً وجوه عظمتها، وعوامل انهيار مجدها».[3]

---

(1) السفر إلى المؤتمر، ص.450–452

(2) أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.106–107

(3) أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.16، 98

كانت رحلة أحمد زكي إلى الأندلس في مطالع حياته عام 1892م وهو لا يزال في سِنّ الخامسة والعشرين تقريباً، وقد عاش حياته مُفاخراً بهذه الرحلة، وهذا اللقاء، متحدثاً عنه في مجالسه ومقالاته على نحو كبير من الازدهاء والتباهي والفخر.[1]

أمّا رحلته الثانية إلى الأندلس فكانت في سنة 1904م عندما دُعِي إلى سرقسطة (Zaragoza) للمشاركة في تكريم الأستاذ فرانسيسكو كوديرا، شيخ المستعربين الإسبان في زمانه، وقد ساهم شيخ العروبة فيه بدراسة عن (العلاقات المصرية الأندلسية) تُعَدُّ رائدة في بابها.[2]

وثمّة في ارتباط شيخ العروبة بالأندلس جانب جدير بالدراسة والاهتمام وهو علاقته بمدرسة الاستعراب الإسباني وبأعلامها الكبار، فقد كان هؤلاء -فَضْلاً عن (المُشترك الأندلسي) الذي يجمعهم به- يُجِلُّونه ويُقَدِّرُون عِلْمَهُ وثقافته الموسوعية العربية الأصيلة، وسوف نقرأ بعض مظاهر ذلك في التقدير الذي لَقِيَهُ من بعضهم في سرقسطة إذْ كرّمته (جمعية العلوم القانونية والأدبية) في هذه البلدة الأندلسية عام 1892م، ومنحته وِسَام العُضوية والافتخار. وفي عام 1904م رجع أحمد زكي باشا إلى الأندلس ليشارك في تكريم علم مرموق من أعلام الاستعراب الإسباني وهو فرانسيسكو كوديرا (Francisco Codera)، وقد ظلت علاقته برواد المدرسة التاريخية الأندلسية الإسبانية مُسْتَرْسَلَة إلى أنْ قُدِّرَ أن يرحل إلى جِوَارِ رَبِّهِ، وحسبنا أن نشير هنا إلى شيخ المستعربين الإسبان الأستاذ إميليو غرسية غومس (Emilio Garcia Gomez)، فقد ربطته بشيخ العروبة

(1) أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.102

(2) Ahmed Zequi، Mémoire sur les relations entre l'Egypte et l'Espagne، pendant l'occupation musulmane. In : Homenaje à D. Francisco Codera En Su Jubilacion Del Profesorado، Zaragoza.1904، pp.455-481

صداقة متينة أيام إقامته القاهرية في أواخر العشرينات من القرن الماضي، وها هو يتحدث عن شيخ العروبة أحمد زكي باشا، يقول:

«وصلتُ إلى مصر في عام 1927م، كان عمري حينها 22 سنة. في الواقع كانت أوّل مرة أسافر فيها خارج إسبانيا. ذهبت إلى مصر وأنا أحمل رسالة توصية إلى أحمد زكي باشا، لم أكن أنتظر أن يكون لهذه الرسالة تلك الأهمية، حيث استقبلني أحمد زكي باشا استقبالاً حاراً، وخلال العام ونيف الذي عشته في مصر، كنت أذهب إلى منزله مرتين كل أسبوع. هناك تعرفت على الكثير من الشخصيات في (دار العروبة) بالجيزة. أثناء هذه الفترة تنازل أحمد زكي باشا للدولة عن جزء من كتبه وبها تم إنشاء (الخزانة الزكية) في الغورية».[1]

كان اتصال إيميليو غرسية غومس بشيخ العروبة خَيْراً على الدراسات الأندلسية، فقد استفاد من خزانته العامرة بالمخطوطات الأندلسية الأصلية والمصورة، من جملة ذلك أنه وقف بها على مخطوط أندلسي نادر هو كتاب (رايات المبرزين) لابن سعيد القلعي الذي كان أحمد زكي باشا يمتلك مُصَوَّرَة عن أصله المحفوظ بإحدى الخزائن التركية، وبالتالي كان أحمد زكي باشا سَبَباً في أوّل نشرة لهذا الكتاب النفيس، وعن هذا الموضوع يقول غرسية غومس:

«فضلاً عن كتب أحمد زكي باشا التي كانت مودعة في الغورية، كان يحتفظ بالكثير من الكتب في بيته، من بينها كانت صورة لمخطوط كتاب (رايات المبرزين) لابن سعيد المغربي. وعن هذه الصورة أعطاني نسخة لهذا المخطوط الموجود حالياً في إستنبول. هذا الكتاب الذي نشرته فيما بعد، كنت

---

(1) إميليو غارثيا غوميث ودوره الاستشراقي، حوار أجراه خالد سالم في مجلة (الوحدة)، العدد 61-62، أكتوبر / نوفمبر 1989م – ربيع الأول / ربيع الثاني 1410هـ، ص.170-171

قـد أعددت جزءاً كبيراً منه مـع أحمد زكي باشا، حيث كُنَّا نخصص ساعة كل أسبوع له، ولكنه كان أوّل من بدأ في الكتابة عن الشعر الأندلسي».[1]

وعـن العلاقة التي جمعت غرسية غومس بشيـخ العروبة، يقول محمود علي مكي رحمه اللّه:

«أثمـرت صداقـة غارسيا غوميس لهـذا العالم الجليل حدثـاً أصبح له أبعد الآثـار في حياته المستقبلية، وذلك أنّ أحمد زكي باشا أهدى ضيفه الإسباني مخطوطـة نادرة لكتـاب (رايـات المبرزين وغايـات المميزين) لابـن سعيد المغربي، وهو مجموعة مختارات شعرية أندلسية انتخبها المؤلف من موسوعته الكبـيرة (المُغرب في حلى المَغرب)، فكان هذا المخطـوط لابن سعيد المغربي نقطـة انطـلاق لدراسات وأعمـال غوميث عـن الشعر الأندلسـي، ومفتاحاً لصياغة كتاب العصر (الشعر الأندلسي) فيما بعد. وقد لا نجانب الصواب إذا قلنـا إنّ هـذا الكتاب (الرايات) هو الذي وجّـه تصوّرات غوميث في هذا الميدان، وأطّر تفسيراته واستنتاجاته حول الشعر الأندلسي بوجه خاص».[2]

لقـد تعـدّدت دراسات أحمـد زكي باشا حـول تاريـخ الأندلس، قـال كاتبُ سيرتـه: «أمّـا أبحاثه عن الأندلس فَحَـدِّث عنها ولا حرج، فقـد ألقى عنها عشرات المحاضرات، وكتب أكثر من مائة بحث، وهو الذي أطلق عليها اسم (الفردوس الإسلامي المفقود)، وناح عليها وأبكى الناس، وجدّد قصيدة أبي البقاء الرُّنْدِيّ صاحب المرثية المشهورة في البكاء على الأندلس».[3]

فمن (أندلسيات) شيخ العروبة أحمد زكي باشا، نذكر:

---

(1) إميليو غارثيا غوميث ودوره الاستشراقي، مجلة (الوحدة)، العدد 61-62، ص.170-171

(2) محمـد العمارتـي، إميليـو غارثيـا غوميـث (1905-1995). إصـدارات المجلة (العربيـة) (178) - الرياض.1435هـ، ص.39-40

(3) أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.47، 56، 287

– دراسة عن (علاقات المصريين بالأندلس)، كتبها بالفرنسية، وقد سبق أن ألمحنا إلى مناسبة كتابتها وأحلنا على مصدر النّص.[1]

– كتاب (مدائن الأندلس)، أتمه ولم يُطبع.

– (قاموس الأعلام الأندلسية).

– (مُدُن الفنّ في الأندلس).

– نصوص عن الأندلس مترجمة من الفرنسية.[2]

– (سرقسطة أيام العرب)، نصّ كتبه بالفرنسية في 15 صفحة كبيرة.[3]

– نصّ رحلته إلى الأندلس. ومن المعلوم أنّ شيخ العروبة أحمد زكي باشا لم يُخَصِّص تأليفاً مفرداً لرحلته الأندلسية، وإنّما أودع ما كتب عنها في كتابه (السفر إلى المؤتمر) وهو الكتاب الذي صدرت طبعته الثانية المُصَحَّحَة عام 1311هـ/1894م، ولكنه نشرها هناك بشكل مقتضب، وسَمّاها (الرسالة الأندلسية)[4]، وقد صرح هو نفسه بأنّ ما كتبه ثمّة لا يشتمل إلّا على جزء من عشرين.[5] ثم شَرَع لاحقاً في كتابة نصوص عن رحلته الأندلسية بشكل مُوَسّع ومُسْهَب في العديد من الحلقات بجريدة (الأهرام)[6]، وفي هذا الصدد يقول شيخ مؤرخي الصحافة المصرية الدكتور إبراهيم عبده:

«ويستطيع المؤرخ أيضاً حين يُسَجِّل لجريدة (الأهرام) نشاطها أن يعود إلى ما كتبه أحمد زكي باشا عن (الإسلام في الأندلس)، فقد أتحفنا ذلك

(1) ذكره له محمد كرد علي في مجلة (المقتبس)، انظر:

– أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.47، 56، 287

(2) أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.7، 43، 53، 282

(3) أحمد زكي باشا، السفر إلى المؤتمر، ص.383–384

(4) السفر إلى المؤتمر، ص.373–425

(5) السفر إلى المؤتمر، ص.438

(6) أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.15، 39

المؤرخ بمقــالات مختلفة في هذا الموضوع، فيها بحــث ملحوظ ودقة تاريخية ظاهــرة حتــى اعتبر الناس تلك المقــالات مرجعاً هاماً في هــذه الناحية من التاريخ لما انطوت عليه من وثائق وأسانيد اعتمد عليها أحمد زكي في وصفه لمــا كان عليه الإســلام في إسبانيا، وكيف عاشت حضارتــه وكيف اندثر من تلك البلاد وبقيت حضارته حيّة فيها».[1]

وبالعــودة إلى رحلتــه الأندلسية، فقد شرع أحمد زكــي باشا في كتابة نصّها في غرناطــة يوم الاثنين 5 رجب سنــة 1310هـ/ 23 يناير سنة 1893م، وهو النص الــذي يمثل الرسالة السادســة من الرسائل المؤتمريــة التي يجمعها كتابــه (السفــر إلى المؤتمــر)، وقــد وردت الرحلــة الأندلسية هنــاك بهذا العنــوان: (وداع باريــس وذِكــر الأندلــس والبرتغــال بوجه الإجمــال). وقد أثبتناها بنصها الكامل في الفصل الرابع من كتابنا هذا.

– كمالــة الرسالة الأندلسيــة. كَتَبَ أحمد زكي باشا هــذه المقالة بعد عودته من إسبانيــا، وهو يعني بـ(الرسالة الأندلسية) نصّ رحلته المنشور في كتابه (السفر إلى المؤتمر)، أمّا (الكمالة) فهي مقالة رائدة حول الأصول العربية لعــدد كبير من الكلمــات الإسبانية، وكــذا التأثيرات المتبادلة بــين الأسماء العربية والأسماء الإسبانية، وقد وَسَم هذه المقالة بعنوان: (نُبذة في امتزاج العــرب بالعجــم في إسبانيــا والاستشهاد على ذلــك بالأسمــاء والألقاب)، ولأهميتها في مجال الدراسات اللغوية المُقَارَنَة أثبتنا نصها كاملاً في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

ومن تآليفه وتقييداته في مجال الدراسات والأبحاث الأندلسية:

---

(1) إبراهيم عبــده، جريدة الأهرام.. تاريخ وفن (1875–1964)، مؤسسة سِجِلّ العرب – القاهرة.1964 ، ص.591

- تقريــر عن الكتب التي خلّفها العرب بالأندلــس.[1] وعن هذا التقرير يقول العَلّامــة أنــور الجنــدي: «وبَعْدَ عودتــه من إسبانيــا (الفردوســ الإسلامي المفقــود) يُقَــدِّمُ مذكرة إضافية إلى فخري[2] باشــا ناظر المعارف عن الكتب المخطوطــة في الإسكوريال في إسبانيا، وطالب بــأن تَحْمِل مصر لواء نسخها وطبعها».[3]

وقد عثرنا في دار الكتب المصرية (دار الكتب والوثائق القومية - بالقاهرة) على الأصل المخطوط لهــذا التقرير، مُسَجَّلٌ بها تحت رقم: 1114. وقد ورد عنوانه في الصفحة الأولى كما يلي:

(تقريران مُقَدَّمَان إلــى صاحب الدولة مصطفى رياض باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية والمعارف العمومية).

وتحت هذا كُتب ما يلي:

(التقرير الأوّل: عن الكتب التي في خزانة الإسكوريال بإسبانيا).

ثــم جرى عرض نص هذا التقرير الأوّل الذي استغرق 14 صفحة. ولم نعثر في دار الكتــب المصرية على أثر للتقرير الثاني، وإنما نعلم فقط -من خلال التقريــر الأوّل- أنه هــو أيضاً حــول المخطوطات العربيــة بالإسكوريال، بل أكــثر تفصيلاً من الأوّل حسبمــا يُستفاد من هذه العبارة الواردة في التقرير المذكور، قال شيخ العروبة:

«والمثــال الثــاني يتعلق باللغــة العربيــة، وأستشهد الآن بالجزءيــن الباقيين هنــاك من كتــاب (المخصــص) للعلامة اللغــوي الضرير بــن الضرير أبي

(1) أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.48.

(2) الأصــل المخطوط مــن التقرير الذي وقفنا عليه يؤكد أنه كان موجها إلــى (مصطفى رياض باشا رئيس مجلــس النظار وناظر الداخلية والمعارف العمومية)، على أن هــذا لا يمنع أن يكون للتقرير نسخة ثانية قُدِّمت لفخري باشا المذكور.

(3) أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.59، 289-290

الحســن المعروف بابن سيده المتوفى سنة 458 (وقد تكلمت عن هذا الكتاب على حدته في التقرير الثاني ولذلك أكتفي هنا بمجرد الإشارة)».

وللأسف أنّ هذا التقرير الثاني يُعتبر مفقوداً اليوم، ومما تجب الإشارة إليه أنــه من بــين المراجع التي وردت عند العلّامة الراحــل الأستاذ أنور الجندي في الكتــاب الذي أفرده لسيرة شيخ العروبة أحمــد زكي باشا يُرى مخطوط بعنوان: (تقرير أحمد زكي عن مكتبة الإسكوريال).[1]

ولا نــدري هــل القصــد إلى التقريــر الأوّل الــذي يوجد بين أيدينــا؟ أم إلى التقرير الثاني المفقود؟ أم إلى كليهما؟

ومهمــا يكن الأمر، فَمَا نتوفر عليه الآن هو التقرير الأوّل، ونحن عزمنا على نشــره، وســيرى القارئ نصّه كامــلاً في الفصل السادس مــن هذا الكتاب. ونأمل أن نعثر على التقرير الثاني الأكثر تفصيلاً، واللّه ولي التوفيق.

وعموماً فقد كان لأحمــد زكي باشا فضل كبير على الدراسات الأندلسية في بواكــير عمرهــا، ولا شك أنّ الدافع الذي رمى بهــذا الرائد المُؤَسِّس في بحر الأندلــس هو الحُبّ، أعنــي حُبَّه للأندلس، وقد عبّر عــن هذا الحُبّ في غير ما مناسبة، وصَوَّر مشاعره تُجاه الأندلس في عبارة عذبة رائعة يقول فيها:

«قلبــي بأندلــس مُدَلّه، وعقلي بأطلالــه مُوَلّه، وهيامــي بأهله حديث قديم، وغرامي بساكنيــه مقعد مقيم، وحنيني إليه مُتَجَدِّد حيناً بعد حين، ونحيبي عليــه يُحَبِّبُ لي فيــه الأنس والحنــين، فاعذروني على هذا الهــوى العذري، فقــد خانني شعري ولم يساعفني نثري، على أننــي أُعَلِّل نفسي بأن تستمعوا لهمســي، وتعاونوني على إحياء أندلسي، فذلــك الهوس هوسي، وقد لازمني في حلمي وفي حسي، واستمكن من عقلي واستولى على نفسي».[2]

(1) أنــور الجندي، أحمــد زكي الملقب بشيخ العروبــة، سلسلة أعلام العــرب (29)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي – مصر.1963م، ص.304.

(2) أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ص.98.

الفصل الرابع

وَدَاعُ باريز..

وذِكْر الأندلس والبُرتغال بوجه الإجمال[1]

من غرناطة في يوم الاثنين المبارك 5 رجب الفرد سنة 1310هـ

23 يناير سنة 1893م.

(1) السفر إلى المؤتمر، ص.373-425

قضــت نواميس الكــون الإنســاني، ونظامات الوجــود العمراني، بــأنّ دوام الحال من المحال، وأنه لا بد من الفراق، مهما طال التلاق، وأن لكل اجتماع انقطاعــاً، ولكل اتصال انفصالاً، تلك سُنّــة الله في خلقه جيلاً فجيلاً، ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً.

أَطَلْتُ المُقام في باريس إلى ما بعد الميقات الذي كنت ضربته لمبارحتها بأيام كثـيرة، فإننــي كنت كلما عزمت علــى السفر رأيت وجــوب التأجيل لمناظرة بعضــ الآثــار، أو لشهــود أنواع مــن الاحتفــال، أو غير ذلك ممــا يستوقف الراحــل، ويستغرق الأوقــات، ويحبس السائــر عن عَــدْوِه، ويخرس الطائر المفصــح بشدوه، فكم فيها من مســارح تنضح بها الجوانح، ومحاسن يشغل بهــا عن وكره السانح، ومطارح تطرح ذكر الوطــن من ذاكرة السائح، حتى اعتراني الكلال والملال من كثرة ما رأيت وما سمعت. وصرت أترقب الفرص لتيسر الخروج من هذه الدار كما دخلتها بسلام، فيسر الله الأسباب، وفتح الأبــواب، فودّعتها في منتصف ليلة 19 إلــى 20 نوفمبر سنة 1892، ورحلت عن هذه الأرجاء المتألقة والروح بها وبمن فيها متعلقة، ثم سار القطار ينهب الأرضــ نهباً، ويقطع الفيافي فدفداً فدفداً، ومَرَّ على كثير من مدائن فرنسا العامــرة مثل تور (Tours) وهي مشهورة باعتدال اللسان الفرنسوي وصفاء اللغة حتى إن أكثر الطالبين لا بد لهم من الإقامة فيها شهوراً طويلة لترسخ فيهــم ملكته التي لا تشوبهــا أدنى شائبة، ومثل أنجوليــم (Angoulème) المذكــورة في كتب العرب باسم: أنقلزم، ومثل بوردو (Bordeaux) المشهورة بخمورهــا شهــرة تغنــي عن وصفهــا، وقد سَمَّاهَــا العرب بحســب التسمية اللاتينية: برديل، وبردال (وبالذال المعجمة في كلتا اللفظتين).

وكان بــودي أن أقف بكل من هذه المدائــن الثلاث بضعة أيام، ولكن وقتي لم

يكـن يسمح لي بإنالة نفسي هذه الأماني، ولم أصـل إلى تخوم إسبانيا[1] إلّا بعـد أن أمضيت في القطـار مدة أربع وعشرين ساعـة لم تكتحل فيها عيني بإثمـد الكـرى، حتى أجهدني السـير وأضناني السـرى، ولكنني تجدّدت فِيَّ القوى حينمـا شممت عبير الأندلـس واستنشقت نفحاتـه، وتمتعت بالنظر إلـى صافي سمائـه، وقد ترصّعت بالدراري كما هو الشـأن في بلادي وأرض مهـادي، بخلاف ما كنت قد اعتـدت عليه في إنكلترا وبارِيز من كدورة الجَوّ وقِتمة السماء وتوالي الغيـوم وتعاقب الأمطار، فصرت أُسامر بدر الظلام، وأُطـارح الكواكب الحديـث، وأشكو إليها ما لاقيتـه في غربتي وأطيل النظر إليها حتى لقد كان:

يخيل لي أن سمر الشهب في الدجى

وشـدت بـأهـدابـي إلـيـهـن أجـفـاني

وحينئذ شطحت مع تيار الأفكار، ولكنني ما لبثت أن انقبض صدري وعلتني الكآبة وتولاني الانزعاج إذْ أحاطت بي جيوش من اللوعة والأسف، والحسرة واللهـف، لأنني تفكرت ما ناله الإسلام من العز والاقتدار في هاتيك الديار، أيـام كانـت تخفق فوق الأندلـس أعلامه وتجول فيـه أقوامه، ناشـرة ألوية الفخـار والحضارة، رافعـة رايات المجد والكرامة، أيـام كانت المآذن قائمة علـى أعاليـه وروابيه، تشق أكبـاد السحاب، ويرتفع منها صـوت المؤذن إلى عنان السماء، فتخشـع القلوب، وتعنو الوجوه لذكر الحي القيوم، أيام كانت المساجـد عامـرة بجماعات الموحديـن القانتين، وربوع العلـم زاهرة زاهية بالدَّارِسـين والمُدَرِّسِين، أيام كان التمدن العربي باسطاً بساطه، من أطرافه إلـى أطرافـه، والمروءة والشهامـة ساريتين في جسمانه، أيـام كانت خلافة

(1) وقد ورد اسمها في كتب العرب: إسبانيا. وفي كتاب (مختصر الدول) لأبي الفرج: إسفانيا.

المغرب تفوق مناظرتها في المشرق بما احتاطت به من أسباب البذخ والعظمة والعرفان، حتى كانت ملوك أوربا تتزلف إلى الخلفاء وتلتمس رعايتهم وحمايتهم، أيام نبغ العلماء والمخترعون والمكتشفون الذين أفادوا العالم بأجمعه، ورفعوا كلمة الإسلام، وجاؤوا بأقوم برهان على أنّ الدِّين الحنيف يساعد بكلياته وجزئياته على البحث في أسرار الطبيعة، وأنه يحض على اقتناء ثمرات المعارف بجميع أنواعها ومطالبها.[1]

وقد اشتد بي الوجد والوله، حتى عدمت التعبير، وغاب عقلي، وما أبصرت نفسي إلّا ولساني يندفع بترديد بعض أبيات من القصيدة المشهورة التي نظمها أبو البقاء الرُّنْدِيّ في رثاء الأندلس وتُرجمت نثراً ونظماً إلى اللغة الألمانية والفرنساوية والإسبانية وغيرها، وكنت أُكْثِر من ذِكْرِ هذه الأبيات بحسب ورودها على لساني، وإني أوردها الآن بنصها[2]:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ
فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتها دُولٌ
مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحد
ولا يدوم على حالٍ لها شان

(1) وما زلنا إلى الآن نقتبس أنوار الهدى من مؤلفاتهم القليلة التي استبقتها يد الصدفة فنجت من التبديد والتمزيق، وسأشير إلى بعضها في الرحلة.

(2) إنّ العلّامة الفرنساوي جرنجري ديلاجرنج (Grangeret de la Grange) طبع في باريس سنة 1823 كتاباً سماه (نخب الأزهار في منتخب الأشعار، وأذكى الرياحين من أسنى الدواوين) جمع فيه كثيراً من مستجاد شعر المتنبي بشرح الواحدي له، وشعر ابن الفارض وشرحه، والصفدي، ومن فتوح الشام للواقدي، ولجملة شعراء متعددين، ثم ترجم ذلك كله إلى الفرنساوية وعلّق عليه كثيراً من الحواشي الأدبية والانتقادية وأورد في جملتها قصيدة أبي البقاء هذه نقلاً عن عن نسخة من (نفح الطيب) في مكتبة باريس وهي مترجمة بغاية الدقة والضبط، ولَمَّا كان الناقل أخطأ في نقل بعض الكلمات فقد ترتب على ذلك أن ترجمة بعض الأبيات جاءت مختلة فأحببت التنبيه على هذه الأبيات هنا لإكمال الفائدة.

يُمزق الدهر حتماً كل سابغة

إذا نبت مشْرفيّاتٌ وخُرصانُ

وينتضي كلّ سيف للفناء ولوْ

كان ابنَ ذي يزَن والغمدَ غُمدان

أين الملوك ذَوو التيجان من يمنٍ

وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ؟

وأين ما شاده[1] شدَّادُ في إرمٍ

وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ؟

وأين ما حازه قارون من ذهب

وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ؟

أتى على الكُل أمر لا مَرَدّ له

حتى قَضَوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلك ومن مَلِك

كما حكى عن خيال الطّيفِ وسْنانُ

دارَ الزّمانُ على (دارا) وقاتِلِه

وأمَّ كسرى فما آواه إيوانُ

كأنما الصَّعب لم يسْهُل له سببٌ

يوماً ولا مَلكَ الدُنيا سُليمانُ

(1) نقلها العلاّمة لاجرانج المذكور هكذا: (ساده شداد) بالسين المهملة، وترجم بما معناه السيادة، ولا معنى لذلك إذ المقصود المباني والآثار التي أقامها شداد في إرم المشهورة بمبانيها الفاخرة.

فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنوَّعة

ولِلزمان مسرّاتٌ وأحزانُ

ولِلحوادث سُلوان يسهلها

وما لما حلّ بالإسلام سُلوانُ

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له

هوى له أُحدٌ وانهدّ ثهلانُ

أصابها العينُ في الإسلام فارتزأتْ[1]

حتى خَلت منه أقطارٌ وبُلدانُ

فاسأل (بلنسيةَ) ما شأنُ (مُرسية)

وأينَ (شاطبةٌ) أمْ أينَ (جَيَّانُ)

وأين (قُرطبة) دارُ العلوم فكم

من عالمٍ قد سما فيها له شانُ

وأين (حِمْصُ) وما تحويه من نُزَهٍ

ونهرُها العَذبُ فياضٌ وملآنُ

قواعدٌ كُنَّ أركانَ البلاد فما

عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ

تبكي الحنيفيةَ البيضاءُ من أسفٍ

كما بكى لفراق الإلفِ هيمانُ

(1) أوردها العلامة المذكور: (فامتحنت). وهي بالبناء المجهول والمعنى واحد.

علـى ديـــار مــن الإســـلام خـالـيـة

قـد أقـفـرت ولها[1] بـالـكـفـر عُـمـرانُ

حيث المساجد قد صـارت كنائسَ ما

فـيـهـنَّ إلا نـواقـيـسٌ وصُـلـبـانُ

حتـى المحـاريـبُ تبكي وهـي جـامـدةٌ

حتـى المـنـابـرُ تـرثـي وهـي عـيـدانُ

يـا غـافـلاً ولـه في الـدهـرِ موعظةٌ

إن كـنـت في سِـنَـةٍ فـالـدهـرُ يـقـظانُ

ومـاشـيـاً مـرحـاً يـلـهـيـه مـوطـنـهُ

أَبْـعَـد حـمـصٍ لعز[2] المـرء أوطـانُ؟

تـلـك المصـيـبـةُ أنـسـتْ مـا تـقـدّمـهـا

ومـا لـهـا مـع طـولَ الـدهـرِ نسـيـانُ

يـا راكـبـين عـتـاق الخـيـلِ ضـامـرةً

كـأنـهـا في مجـال السبقِ[3] عـقـبـانُ

وحـامـلـين سـيُـوفَ الـهـنـدِ مرهفة

كـأنـهـا في ظــلام[4] الـنـقـع نـيـرانُ

وراتــعـين وراء الـبـحـر في دَعَـةٍ

لـهـم بـأوطـانـهـم عِـزٌّ وسـلـطـانُ

---

(1) أوردها العلامة المذكور: (وبها بالكفر).. وهي غلط في الطبع.

(2) وفي رواية أخرى: (تَغرُّ المرء أوطان)، وإني أستحسن قوله (لعز المرء) أي الأندلسي لأنه صار لا وطن له.

(3) استبدل العلامة ديلاجرانج لفظة (السبق) بقوله (السيف) وترجم بهذا المعنى. وهو غلط واضح.

(4) وفي رواية أخرى: (في مثار النقع)، والمعنى صحيح لكن الظلام أنسب لظهور النيران فيه بوضوح أكثر.

أعندكم نبأ من أهل أندلس

فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ؟

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم

أسرى وقتلى فما يهتز إنسان؟

ماذا التقاطُع في الإسلام بينكمُ

وأَنْتُمْ يا عبادَ الله إخوانُ؟

ألا نفوسٌ أباتٌ لها هِمَمٌ

أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ

يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزِّهمُ

أحالَ حالهمْ جور وطُغيانُ

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم

واليومَ هم في بلاد الكفر عُبدانُ

فلو تراهم حيارى لا دليل لهمْ

عليهمُ من ثيابِ الذُّلِّ ألوانُ

ولو رأيتَ بُكاهُم حين[1] بيعهمُ

لَهَالَكَ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ

---

(1) أورد العلامة ديلا جرانج: (عمد بيعهم) وهو واحد، غير أنه قدّم هذا البيت على الذي قبله وهو غلط يدل عليه سياق الكلام وانسجام المعاني.

يا ربّ أمّ وطفلٍ حيلَ[1] بينهما

كما تفرقَ أرواحٌ وأبدانُ

(وطفلة مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعت

كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ)

(يقودُها العلجُ للمكروه مكرهةً

والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ)

لمثل هذا يبكي القلبُ من كمد

إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

وَصِرْتُ أُرَدِّدُ هذه الأبيات وغيرها حتى وصلت مدينة إيرون (Irun) أوّل تخوم إسبانيا من الشمال، فنزلت بها وقد انتصف اللّيل، وما صَدّقت الوصول إلى الفندق حتى اضطجعت على الفراش طلباً للراحة الضرورية، ولبثت به على خلاف عادتي إلى أن قرب الظهر، ولم أستيقظ إلّا على جَلَبة الأطفال وصياحهم في لعبهم ولهوهم بترنيمات تكاد تنطبق على وزن هذين البيتين:

شرد النوم عن جفونك وانظر

حكمة توقظ النفوس النياما

فحرام على امرئ لم يشاهد

حكمة الله أن يذوق المناما

(1) أورد العلامة ديلاجرانج الشطر الأوّل من هذا البيت هكذا: (يا رب أم وطفل جبل بينهما). وترجم بما معناه. وهو غلط مبين لأنه تصوّر أن (رُبّ) بضم الراء هي (رَبّ) بفتحها، واللفظة الثانية من أسمائه تعالى. وأمّا الأولى بمعنى (ربة) و(ربما) من حروف الجر للتقليل في المشهور وللتكثير وقيل بل إنهما يُستفادان من سياق الكلام. ثم إنه أخطأ في قراءة (حيل) فوزّع النقطتين على الحرفين فرأى (جبل) وهي قراءة يترتب عليها هد بيت الشعر، وكان الرجل عارفاً ببحوره وأوزانه.

فقمتُ فزعاً مرعوباً وأنا أقول:

أين هذه الحكمة؟

ولماذا ورد هذا البيت على خاطري مع أن القصائد التي من بحره كثيرة؟

ثم تذكّرت أنّ السبب في ذلك ما كنت فيه بالأمس، فهرعت إلى الخروج لأنظر البلد وما فيه وما حواليه، فرأيت المباني والنوافذ والأسطحة تشبه ما عهدته طول عمري في مصر، وكذلك الحارات والزقائق وغيرها.

وقد كنت وأنا في باريز درست نحو اللغة الإسبانية للاستعانة على مخاطبة القوم ومبادلة أفكاري معهم مباشرة، ولكنني لما حضرت إيرون وتكلمت مع أصحاب الفندق وخصوصاً مع الدليل تحقّق لي أن درس النحو شيء ومعرفة اللسان شيء آخر، وحينئذ زال ما كنت أجده من الغرابة من كون بعض الناس يقضون سنين طويلة مديدة في درس النحو بجميع فروعه ثم هم لا يعرفون من العربية سوى هذه الآلة.

وأقول الحق، إنني لمّا رأيت اضطراري لمخاطبة القوم ساعة بالإيطالية، وتارة بالفرنساوية، وغالباً باللغة الإشارية التي يفهمها جميع أصناف بني آدم، تراخت عزيمتي، وثبطت هِمّتي، وهممت بالرجوع من حيث أتيت، وخصوصاً لما كان يقوم بفكري من أنّ أهل الأندلس الآن أشدّ أهل الأرض تعصّباً على المسلمين وكراهة للعرب وجفوة للغريب، مع ما هم فيه من الهرج الدائم على حكومتهم مِمَّا كنت قرأته حديثاً في التلغرافات وأنا في باريز، فضلاً عما رأيته في كتب السياحات من التشنيع عليهم وتخويف الغريب من الدخول إلى ديارهم. ولَمَّا كَانَ حُبُّ البقاء طبيعة في الإنسان، وكانت الحياة غالية خصوصاً عند وشك الوقوع في الخطر مع اشتداد الحنين بل الوله بالرجوع إلى الوطن بعد طول الغيبة، كادت هذه الأفكار وأضرابها تفوز على

مـا عندي مـن الشوق لرؤية هذه البـلاد الجميلة وتعهد بقايـا العرب فيها، فتذكـرت حينئذ المثـل السائر: (من لم يركـب الأهوال لم ينـل الرغائب)، وأنشدت على نفسي لإحياء مائت قُوّتي قَوْلَ الشاعر:

إن كنت تطلب عـزاً فـادّرع تعبا

أو فَارْضَ بالذل واختر راحة البدن

فتجـدّدت فيّ عوامل القوى، وانبعثت في جسماني روح النشاط، وتذكرت أني أكون أوّل من زار جميع الأندلس من المسلمين والمصريين خصوصاً من أبناء هذا الجيل وكَتَبَ ما رآه فيها وقارن بين حالتها، وفي ذلك فخر عظيم.

ومـن يجد الطريق إلى المعالي

فـلا يـذر المطـي بـلا سـنام

ولذلك توكلت على الله، وقمت من إيرون إلى فنترابيا (Fontarabia)، إلى سان سيبستيان (San Sebastian)، إلى بنبلونة (Pamplona) وتُسَمّى في قليل من كتابات العرب: (بمفلونـة) وقد حكمها المسلمون اثنتي عشرة سنة فقط، وهـي أنظف مدينة رأيتها، وجميع شوارعهـا وحاراتها وأزقتها تُضاء بالنور الكهربائي.

ثم قمت إلى سرقسطة (Saragosse / Zaragoza) وقد :

نـزلـنـا بـهـا نـبـغي المـقـام ثـلاثـة

فطابت لنا حتى أقمنا بها عشرا

فإننـي ألفيـت بها من كـرم أهلها وحسن مجاملتهم وكـريم توددهم ما كاد ينسينـي الإخوان، واطلعت فيهـا على كتب عربية نادرة جِـدّاً، وتعلمت فيها الكلام الإسباني.

ثــم إنّ (جمعيــة العلــوم الشرعيــة والأدبيــة) (Academia Juridico–Literaria) عَيَّنَتْني عضواً افتخارياً بها، واحتفلت بي احتفالاً فائقاً، وعقدت جلســة مخصوصة لاستقبــالي بغاية التكريم والترحيــب، فخجلت أن أدخل بينهــم خالي اليديــن لا أُقَدِّمُ لهم موضوعاً في هذه الحفلــة المُهِمّة، وألهمني الله أن أكتــب لهم خطبة باللغــة الفرنساوية على مدينتهــم في أيام العرب، فاستعنــت ببعض الكتــب القليلة التــي وجدتها عند المشتغلــين بالعربية من أساتذتهــا، وببعضــ ما عــنّ بالخاطــر، وقدّمت لهم خطبــة في 15 صحيفة من الــورق الكبير المعــروف بالفولسكاب المستعمــل في الدواوين، وقد راقت لديهم حتــى طنطنت الجرائد بهــا وذكرت هذا الاحتفــال بألفاظ التبجيل والإجــلال[1]، وترجم كثير من خطبتي إلى اللغة الإسبانية على ما علمته بعد قيامــي من سرقسطــة، وأنّ الجمعية شرعت في طبعهــا في مجموعتها، وقد أتحفنــي أكثر المؤلفين والعلمــاء بكتب كثيرة من تأليفهــم. وخلاصة القول: إنّ هــذا اليــوم كان مــن أسعــد أوقاتــي، وإني أحمد الله على هــذا التوفيق الــذي مكّنني من تشريف اسم بلادي، وقد أجابــوا على خطبتي بالإسبانية والفرنساوية والعربية والطليانية.

والسبــب في ذلك أنه اتفق في بعض الأيام انعقــاد جلسة الجمعية الشهرية، فدعاني حضرة رئيسها الافتخاري وهو العَلّامة بابلو خيل (D. Pablo Gil)، مُقدم الأساتذة في المدرسة العاليــة للفلسفة والآداب، لأنْ أزورها، فتوجّهتُ بصحبتــه، وأجلسني عن يمينه، وبعد أن تمت أعمال الجمعية قدّمني إليها، ثــم دعاني لأن أخطب عليهــم بشيء مما يفتح الله به عَلَــيّ، وإذْ لم يكن لي سابقة علم بهذا الأمر، وقفتُ فيهم وحيّيتهم بالعربية ليهدأ روعي وأستجمع أفكاري، ثــم خاطبتهم بالفرنسوية بكلام طويل، ولَمَّــا جلست طلبوا مني أن

(1) أرسلتُ في ذلك الوقت نسخاً من هذه الجرائد إلى العاصمة لبعض أصدقائي.

أتكلم بالطليانية ففعلت، وحينئذ قام الرئيس الأصيل وطلب من الجمعية تعييني عضواً افتخارياً فأجابت بالإجماع، ثم عَيّنوا جلسة غير اعتيادية لاستقبالي، وحينئذ أشار عليّ الرئيس الافتخاري بأن أشكر الجمعية باللغة الإسبانية فامتثلت مع قلة البضاعة، وكنت حينما لا أجد اللفظ المطلوب أضع مكانه كلمة طليانية أو فرنسوية، ولو شئت ترجمة ما ذكرته الجرائد عن هذا الاحتفال لاستغرق رسالة أكبر من هذه الرسالة.

فأمّا الخطبة التي أجاب بها بالإسبانية الأستاذ المتضلع العَلّامة خوليان ريبيرا (D. Julian Ribera) فكانت كلها درراً وغرراً تشهد بمزيد اطلاعه على العلاقات العلمية الأدبية التي كانت بين المشارقة وخصوصاً المصريين وبين أهل الأندلس، وسأورد ترجمتها في فرصة أخرى، ويحق لي أن أورد هنا الخطبة العربية التي ألقاها أثناء الاحتفال أحد أعضاء الجمعية وهو الدون سان بيو (D. San Pio) الذي تلقيت عليه اللغة الإسبانية، وها هي بنصها الفائق:

(بالنيابة عن جميع إخواني، سلام عليك يا أيُّهَا العلامة المصري أحمد زكي أفندي. بودي أن أُلقِي الآن خطبة ولكني مثل أيوب قد ازدحمت عليّ الأفكار، وقد دعاني إخواني أن أقول شيئاً بلغتك الفصحى، فأقتصر على إيراد بعض جمل من الكتاب المقدس: (يخرجك الرَّبُّ إلى مصر في سفن، واذكر ما لاقيته في هذه المدينة، والقادر الكافي يبارك لك في السفر والإقامة).. والسّلام).

وقد اطّلعت في مكتبة الدون خيل المذكور على كتب عربية كثيرة، وأغلبها باللغة التي يسمونها (ألخميادو) (Aljamiado)، وذلك لأن العرب لمّا انقرضت دولتهم بالأندلس وبقي بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد، ولكنهم نسوا أو ألزموا بإهمال اللغة العربية وصارت القشتالية أي الإسبانية مَلَكَة متوارثة فيهم، فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية، وقد رأيت في سرقسطة ومدريد عدداً عظيماً من هذه الكتب في أنواع

العلوم النقليـة والعقلية، ورأيت كثيراً من المصاحـف الشريفة مكتوبة بهذه اللغـة ترجمهـا إلى الإسبانيـة بقايا الأعـراب المسلمين، وهـذه اللغة تعرف بـ(الألخميـادو)، ووَجْهُ هذه التسميـة أنّ العرب يُسَمُّـون كل ما ليس بعربي أعجميـاً، وجرى على منوالهم الأندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أي الإسبانيـة باسم: (الأعجمية)، ثم انتقلت هذه اللفظـة إلى اللغة الإسبانية بغير حرف العـين لعدم وجود ما يُقابله في اللغات الإفرنكية فصارت الكلمة مقابـل هـذا الصـوت: (ألاجاميـا)، ولَمَّـا كان أهـل إسبانيا يقلبـون أغلب الجيمـات خَـاءات كما سنبينه قالـوا: (ألاخاميا) أو (ألَخَميـا)، ورسموها بحروفهـم هكذا بعد أن سكّنـوا حركة الـلاّم (Aljamia)، وعلامة النسبة عندهم توضع في آخر الكلمة فلذلك قالوا: (Aljamiado) أي (الأعجمية).

وإليـك الشواهـد علـى قَلْبِهـم الجِيـم خَـاءً، فإنهـم يقولـون في الحجـام (ألفاخمـي)، وفي علم الجبر (ألخبرا)، وفي الجصـ (ألخيذ)، وفي الجُبّ بمعنـى الصهريـج والجابيـة (ألخيبـي)، وفي الحاجة بمعنـى أمتعة البيت (ألهاخـا)، وفي الجعبـة (ألخابـا)، وفي الجفنـة (ألخفنـا)، وفي الجرس (ألخـرذ)، وفي البرتقـال (نارنخـا) مِنْ قـول العرب (نـارنج)، وفي مَحَلّ سِجن النصـارى عند عرب الأندلس (ساخينا) مـن قول العرب (سجن)، وفي الترنجـة (ترنخـا)، وفي الجوهـر (ألخوفـر)، وفي الجبـة (ألخوبا)، وفي المنجنيـق (المنخنيكـي)، وللجيفة (خيفا)، وتاريـخ الهجرة (هخيرا)، ولخنزير الجبل أو الحلوف (خبلي) من قول العرب جبلي.

هـذه بعضـ ألفاظ علقتهـا أثناء تلقي اللغـة حتى إنني لاحظـت دوران هذا الحـرف في غالب كلماتهـم الأفرنجية التي يكون فيها شـين أو جيم أو سين بحيث لو سمعهم رجل من أهل المزاح لاستمنح من القارئ السماح وقال: إن لغة القوم تدور على حرف الخاء.

ولقــد سمعتهــم في بعضـ الأحيان يقولــون: ألختـيرا (Algecira)، فسألت عــن ذلك فأعلموني بأنهـا الجزيرة الخضراء، وحينئـذ تشوّفت لأن أعرف ييـف يسمون بلاد الجزائـر، فـإنّ الفرنسوية يقولون (ألْجِـيري) (Alge-rie)، والطليانية (ألجريـا) (Algeria)، ولكنني حمدت الله حينما رأيتهم قـد قلبوا فيهـا وضع الحروف فجعلوا الــراء مكان اللام وقالــوا: (أرخليا) (Argelia) ولم يقولوا غير ذلك.

وقــد لاحظتُ بعض ألفاظ تنافي هذه القاعدة فيقولون في الخزانة (ألاثينا) بمعنــى الخزانــة المنقورة في حائط البيت، وفي الخــروع (تشرفا)، وفي طير الخطاف (فاتكسا)، وفي المسجد (مِسْكيتا) ومنها قول الفرنساوية موسكي (Mosquée)، وفي المخــراز (ألمفريز) بياء مُمالة، وفي المخذة (ألموهادا)، وفي تصغيرها (ألموهاديدا)، وفي النخاع (ألموكاتي) من قول العرب (المخ)، وفي الخبــازي (ألهبــازي)، وفي البطيخــة (ألبوديجا، وألبوديـكا، وباديها، وباديا)، وفي الخرشــوف (ألكتشوفا، وألكرتشوفا)، وفي البخور (ألبافور)، وفي الخــروب (ألجروبا)، وفي الخزامى (ألهوثيمــا)، وفي المخزن (ألماثن) وهــو اللفظ الشائع ويقولون فيه أيضاً (ألمجاثن، وألمارثن، ومجاثن) (ومنها انتقلــت إلــى كافة اللغات الأفرنكية بهذه الصورة، ثــم إنّ أهل مصر نقلوها عنهــم وتناسوا أصلهــا فقالوا (مغازة) للمخزن الكبــير)، والسخرة بمعنى العونــة (أذوفــرا)، والزرنيخ (أذرنيقــي) بياءين ممالتــين، والرخ في لعب الشطــرنج (روكي)، وفي الشيــخ (كسيكي) بياءين ممالتــين، وفي الخز أيّ الحرير (ألتشز)، وفي الخياط (ألفيات).

هــذا بعض ما لاحظته، وسَــأُلِمُّ في الرحلة بشيء كثير مــن قواعد التحريف عندهم، فهلا من المستغرب بعد ذلك أنهم يقولون إن كلام العرب كله يشبه هذه الأصوات (خبط خبط خبط).

وقد زُرْتُ جميع آثار سرقسطة العربية وغير العربية، وصعدت إلى قمة البرج المائل الذي يشبه برج كنيسة بيشة وهو من صنع الأعراب المرتدين، وقد شرع القوم في تقويض دعائمه خوفاً من سقوطه، ثم خرجت منها شاكراً أفضال أهلها، مُرَدِّداً ثنائي عليهم وعلى أخلاقهم الزكية.

زُرْتُ قسطجون (Castejon)، وميرندة (Miranda)، ثم برغش (Bur-gos) وكنائسها المشهورة وقد رأيت في إحداها لِوَاءً في غاية الإبداع والجمال أخذه الإسبانيون من العرب في واقعة العقاب التي سأذكر عنها شيئاً يسيراً في هذه الرحلة، ثم زرت آبلة (Avila)، ثم مدريد (Madrid) (وتُسَمَّى في كتب العرب القديمة (مجريط))[1] وقد رأيت جميع ما فيها من المتاحف والمعارض، ولاقيت علماءها وكبراءها ووزراءها، واجتمعتُ بصاحب العطوفة طرخان بك سفير الدولة العَلِيَّة الذي كان والياً على جملة ولايات مهمة من قِبَل مولانا الخليفة الأعظم أدام الله نصره ورفع كلمته. وقد رأيت منه رجلاً عالماً بالسياسة والقوانين والنظامات، وفيه من الوطنية وحُبّ الإسلام ما لم أجده في غيره إلى الآن، ويسرني أن أقول إن له مقاماً كبيراً في كبراء إسبانيا والأسرة المالكة بأسرها، وله تمام الاطلاع على اللغة التركية والفارسية واليونانية والفرنساوية والإسبانية، وله إلمام عظيم بالألمانية والأرمنية وبعض العربية. وإنني أتمنى من صميم فؤادي أن يكون

---

(1) مجريط، بفتح الميم، كما ضبطه ياقوت في (معجم البلدان)، وقد عقد العلامة أحمد فارس المشهور فصلاً في كتاب (الجاسوس على القاموس) أشار فيه إلى بعض انتقادات جغرافية على الفيروزآبادي بمناسبة ذكره لبعض بلدان الأندلس في (قاموسه)، ولكن وقع صاحب (الجاسوس) نفسه في وَهْم أرى من الواجب إصلاحه في هذا المقام، وبيان ذلك أنّ المجد (الفيروزآبادي) ذكر بلداً اسمه إلبيرة، وقال: «إنه من عمل ماردة»، فجاء صاحب (الجاسوس) (صحيفة 30) معقباً لهذه العبارة بالتفسير قائلاً: «أي مدريد»، وأقول: إنّ ماردة (Merida) بلد، ومدريد بلد آخر، وماردة في الجنوب الغربي بقرب بطليوس (Badajoz) على تخوم البرتقال، ومدريد في الوسط، وماردة كانت بلداً مشهوراً جداً في أيام العرب، ولا يزال فيه إلى الآن آثار جليلة تشهد بفخامته، بخلاف مدريد فإنها عند العرب «مجريط» وكانت في أيامهم عبارة عن حصن ليس إلّا.

جميع نواب الدولة العلية أيدها الله في جميع الممالك الأوروبية على شاكلته، فإنما تعلو الدول بنوابها، وتُعرف قيمتها بمندوبيها.

وقد أكثرتُ في مدريد من زيارة المعرض الأوربي الإسباني الذي أقيم احتفالاً بمهرجان كرستوف كلومب، وذلك لأنني رأيت فيه كثيراً من الآثار العربية الأندلسية التي تبعث في النفس فخاراً وفي القلب أحزاناً، ورأيتُ لواء عربياً يشبه لواء برغش تمام المشابهة، وبجانبه لواء آخر مِمَّا أخذه الإسبانيون من العرب، وقد رأيت في القسم المخصص للطُّوبْجِيّة المدافعَ التي سبق إلى اختراعها أهل غرناطة لِصَدِّ عدوهم عنهم، ورأيت غير ذلك مِمّا لا تمكن الإحاطة به الآن.

وكنتُ أُكْثِرُ من زيارة التياترات في كل ليلة لإتقان اللغة، ولأنها في مدريد مدرسة حقيقية لأخلاق القوم وعاداتهم حتى إنني أثناء التشخيص كنت أتصوّر نفسي في بعض الشوارع أو في إحدى القرى.

ثم زُرْتُ طليطلة (Toledo)[1] فإذا هي مدينة عربية محضة لم يعتورها إلى الآن أدنى تغيير، ولا أتذكر أن مدينة في مصر حفظت هذا الشكل العربي المعهود كما بقي فيها إلى الآن مع توالي الأزمان وتبدل الأحوال، فلا تزال شوارعها وأزقتها حجوج أي متعرجة ملتوية ملتفة صاعدة نازلة، حتى يخالها الإنسان أشبه شيء بتلك الحشرة المعروفة بِأُمّ أربعة وأربعين، وقد رأيت فيها من آثار العرب ما ينطق بفضلهم ويخرس كل متعصب عليهم.

ثم رجعتُ إلى مدريد، وتفرّجت فيها ثلاث مرات على مقاتلة الأثوار

---

(1) تسمى عند العرب بـ(مدينة الأملاك) أي الملوك، لكون اللاتينيين كانوا يسمونها بذلك أيضاً: «Urbs Regia»، وكانت تسمى عند الرومانيين كذلك «Toletum» وبالتصغير «Toletula» ومنه الاسم العربي: طليطلة. وقد ورد اسمها في قليل من كتابات العرب «توليطُه» مثل التسمية الإسبانية، ويقول مؤرخو العرب إن معنى (توليطُه) بلسان قيصر (أنت فارح).

المعروفــة عند الفرنساوية باســم: (Course des Taureaux) و(Combat des Taureaux)، وعنــد الإسبانية باسم: (Corrida de los Toros)، وقد عرفــت جميع تفاصيلهــا وقوانينها، وشهدت غــرام الإسبانيين رجالاً ونساء بهــا إلى الدرجة التي لا يــكاد يتصوّرها العقل، بحيــث إن المقاتلين يعتبرون مــن أَهَــمّ رجالهم، ومن أَحَــبّ الناس إلى الأمة التي تجِــلّ ذكرهم، إلى حَدّ يحسدهــم عليه سراوات القوم وأماثل الأماجــد، وإني أُؤَخِّر شرح ذلك إلى فرصــة أخرى لِمَا يستوجبه من زيادة البيان مع ما فيه من الطلاوة والمباحث الرائقة، وإنّمــا أقول الآن إنّ عرب الأندلس كانوا مولعين بهذا القتال أيضاً، وكانوا يُضارعون الإسبانيين ورُبَّمَا كانوا يفوقونهم.

وبعــد أن أَطَلْــتُ الإقامة في مدريد ركبت قطــار الإكسبريس الدولي متوجهاً إلى بــلاد البرتقال (Portugal)[1]، وزرت عاصمتها المعروفة بِلِشْبُونْ (Lis-bonne – Lisboa)[2].

وقــد بدأت بزيارة حضــرة قنصل جنرال الدولــة العَلِيّة وويســ[3] قنصلها، ورأيــتُ آثارها العربيــة وغير العربيــة، وفي ثاني يوم من وصــولي وَرَدَتْ لي تذاكر من (الجمعية الجغرافية الملوكية) بالتحية والسلام، وبوضع مكتبتها ومتاحفهــا ومعروضاتها وغرفة السلاح والنشــان والبليارد وغير ذلك تحت تصرفي، فزرتهم وشكرتهم واستفدت كثيراً من لقائهم.

وقد زُرْتُ المكتبة الأهلية، ومدرسة المهندسخانة، ومعرض التاريخ الطبيعي، وكل مــا قدرت عليه. ورأيت مــن أهلها حفاوة تخلد لهم الثناء على صفحات الفؤاد.

---

(1) هذا هو اسمها في كتب العرب لا (بورتغال) أو (بورتكال) أو بغير واو فيهما.

(2) يذكرها العرب باسم (لشبونة) و(أشبونة) و(الأشبونة).

(3) ويســ: هــي الكلمة الأعجمية «vice»، وتعني: (نائــب). والمقصود في الكلام أعلاه هو (نائب القنصل) (vice–consul). (ر.ع.).

ثم زرتُ مدينة شنـترة (Cintra)، ورأيت حصون العرب على قمم الجبال، وبجانـب بعضها مسجـد باقية آثاره لـلآن، وعلى مقربة منه قـبر دُفن فيه القـوم عظاماً وَجَدُوهَا ولم يعلموا أنها للمسلمـين أو للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال.

ثـم رجعت إلى لشبونة، وزرت فيها القسم الـذي كانت تسكنه العرب، وكان يُعرف عندهم باسم (الْحَمَّة) (بتشديد الميم) ويُسَمِّيه البرتغاليون الآن من باب التحريف: (ألفاما).

وقـد تشرفت بمقابلة جلالة الملك، فأكـرم وفادتي وأحسن لقائي، ولبثت مع جلالته مدة طويلة، ثم خرجت شاكراً جليل رعايته.

وهـذه المدينـة لها موقع من أجمل مواقـع الدنيا، يشبه أو يفـوق موقع جنوة ونابـولي، ويقرب من القسطنطينية على ما سمعت، ومنظرها يشبه المدائن الشرقية.

وممـا يحسن ذكره من بـاب الفكاهة، أنني خرجت ذات يوم في بكرة النهار لأتفـرج على حركـة المدينة في مبدئها، فمـن جملة ما رأيـت فيها كثير من النساء يسارعن في حركاتهن وهُنّ حُفاة الأقدام، وعلى وسطهن حزام كبير بارز بروزاً شديداً عن بقية الجسم، بخلاف سائر الإفرنجيات فإنهن يبذلن غاية جهدهن في تنحيل الخصر وترفيعه.

ومِمّـا امتاز به هـؤلاء النساء في البرتقال أنهن يضعـن في أعناقهن قيطاناً يتدلـى إلى حـد ثنيـات البطن وينتهـي بصليب كبـير من النحـاس، وفوق رؤوسهن قطعة من القماشـ ملتفة على بعضها مثل الحواية، ويحملن عليها شيئـاً شبيهاً بطست نحاسي مفرطح جدرانه مرتفعة قليلاً، ورأيت إحداهن تصيح بكلام لا أفهمه، فتشوقت لأستوقفها وأعرف ما معها، فسألتُ الدليل

ذلـك، ولكنها لَمَّا نظرت إلى حالتنا وهيئتنا توسمت أننا ممن لا يشتري مِمّا معها، فَهَمّت بمغادرتنا، فأظهرتُ لها قطعة من الورق قيمتها نحو قرش صاغ فوقفتْ وأخذتها، ثـم فرّجتني على ما في الطست، وإذا بـه الفول المدمس، ففرحـت بـه كثـيراً ووطّنـت نفسي علـى أكلة مصريـة في بـلاد أوروبا، ثم استفهمت عن الاسم فإذا هو (Fava Rica) أي الفول الغَنِيّ.

ولَمَّـا رجعتُ الفندق أوصيت صاحبـه أن يستحضر لي في صباح اليوم الثاني مقـداراً مـن هذا الفـول الغني، وقـد كان، غـير أني أردت أن تكـون الأكلة مصرية محضة، وعلى الأسلوب المتبع عند عموم المصريين، فلبثت في غرفة النـوم، وأقفلتها إقفالاً محكماً بعـد أن استحضرت البصل حتى لا أكون مثل بنـي إسرائيل حينما خرجوا من مصر ولم يجـدوا البصل في التيه فتأسفوا عليـه وتلهّفوا، ثم إني تمتعـت بهذا الفطور – والْحَقُّ يُقَـال– أكثر من جميع أيام سياحتي في أوروبا.

ثـم قمت مـن الأشبونة إلى مدينـة كويمـبرا (Coimbra) المعروفة في كتب العرب باسم: قلمرية، وهي الآن دار العلم ومحط المعارف في بلاد البرتقال. وقد رأيت مدارسها الجامعة ومتاحفها وبستان النبات البديع فيها.

وبعـد أن طفت على معظم آثارهـا قُمْتُ إلى مدينة بورتو (Porto)، واسمها في كتـب العرب: (بُرتقـال)، وبها يُسَمَّى هذا القطـر: (برتقال)، كما نقول نحـن الآن: طرابلس، وحاضرتها طرابلس؛ وتونس، وحاضرتها تونس. وكما نقـول: بني سويف، وبندرها بني سويف؛ والفيـوم، وبندرها الفيوم؛ والمنيا، وبندرها المنيا. وهكذا في أسيوط وقنا، وكما كان الشأن في القليوبية وجِرْجا والمنوفيـة قبـل أن ينتقل مركـز المديرية إلـى بَنْهَا وسوهـاج (المعروفة عند العـرب بسوهاي) وشبين الكوم. وسـأورد في الرحلة نصوصاً عربية معتبرة تكون مجهولة للدلالة على صِحّة هذا الاسم (برتقال).

رأيت في مدينة البرتقال هذه آثاراً كثيرة، ولكن العرب لم يخلفوا فيها شيئاً يُذكر، لأنهم كانوا يجيؤونها فاتحين ثم يجوزونها إلى غيرها من البلاد، ولم ترسخ فيها قدمهم، غير أني رأيت دار البورصة فيها وهي من الفخامة والجلالة بمكان، قد تألّف التجار على إنشائها على الطراز العربي، ونقشوا أكبر بهو فيها بحسب الأسلوب العربي، وزينوه بالزخارف، وكتبوا في ضمن رسومها البديعة أشعاراً عربية سأوردها في الرحلة، وفي جميع الطرازات هذه العبارة: (عز لالانا السلطانة مريم 2) يُريدون: عِزّ لمولاتنا السلطانة مريم الثانية.

وقد عَنّ لي وأنا في هذه المدينة أن أمتع نفسي بأكلة ثانية من الفول الغني، فأوصيت صاحب الفندق أن يستحضر لي جانباً من هذا الطعام اللذيذ حتى أتغذى به في وقت الظهر، وأوصيته أيضاً باستحضار الزبد والبصل، فنظر إليّ نظر المستغرب وقال:

كيف يمكن الغذاء بالفول الغني والبصل والزبد!

فقاطعته وقلت له:

هذه إرادتي وما عليك إلّا الإجابة.

فامتثل غير قادر على إخفاء زيادة الاستغراب.

ثم توجّهت لزيارة الآثار وغير ذلك حتى جاء وقت الظهر، فأسرعت إلى الفندق وأنا أتلذذ مُقَدَّماً بأكلة الفول الغني التي أعددت نفسي لها في هذا اليوم السعيد حتى إنني لم أتناول شيئاً من الزاد في الصباح، وقد صعدتُ في الحال إلى غرفة نومي، فوجدت صينية عليها شيء كثير من الخروب، فدققت الجرس بعنف وشدة لكثرة ما اعتراني من الغيظ والحنق، فحضر الخادم، فقلت له:

ما هذا الذي فعلت أيديكم؟

فقال:

إنما أجبنا أمرك وأحضرنا الفول الغني.

فكرّرت الاستفهام، فقال لي:

هذا هو الفول الغني بعينه.

فنزلت لصاحب الفندق وباحثته في هذا الموضوع وأعلمته بمقصودي الذي رأيته بكل انشراح في مدينة الأشبونة، فأدرك السِّرّ وقال لي:

«يا سيدي، أهل بُورْتُو يسمون الخروب فولاً غنياً، ولا يعرفون ذاك الصنف الموجود في أشبونة، بل إنهم يتهكمون على الأشبونيين لكونهم يسمون الفول المصنوع بهذه الكيفية فولاً غنياً مع أنه هو الخروب، للمشابهة بين قرن الخروب وقرن الفول، ولمّا كان في الخروب ميزة على الفول دعوه بالفول الغني، ولهم الحق[1]، وهذا ما دعاني للاستغراب حينما طلبتَ مني في الصباح أن أحضر لك غذاءك من الفول الغني مع الزبد والبصل».

فانشرحتُ من هذا الشرح مع أنني انقبضت للحرمان من أكلتي المصرية والاضطرار للأكل على المائدة العمومية بالطريقة الإفرنكية، ولكن هي السياحة يرى فيها الإنسان ما يسوء وما يسرّ.

ثم خرجتُ منها قاصدا شلمنقة[2] (Salamanca) من بلاد إسبانيا، ولم أتعرض لتعلم اللغة البرتغالية خوفاً من الاختلاط، ولكني لاحظت كثرة تردد (الفاء) و(الشين) و(الراء) فيها.

(1) لينتبه القارئ إلى أنه منهم، ولذلك هو يُصَوِّبُ رأيهم.

(2) هذا هو اسمها الحقيقي في كتب الجغرافية العربية القديمة، وابن الأثير في حوادث سنة 140هـ في الجزء الخامس. وقد وهم صاحب (دائرة المعارف) حيث سماها (سلمنقة) بالسين المهملة، ثم خلط بينها وبين بلد أخرى اسمها (طلمنكة) فقال: إنه اسمها في بعض كتابات العرب. والصواب غير ذلك، فإنّ طلمنكة (Talamanca) بليدة في ولاية مدريد في وسط الأندلس، كانت من أعمال طليطلة في أيام العرب. وأما شلمنقة فهي في الشمال من ولاية جليقية التي قد يسميها العرب (غليسية) (Galicia).

فمثــال الفاء: الخروب، يسمونه (الفروب)؛ والبحيرة، يسمونها (البفيرة)؛ والصهريــج، يسمونــه (زفريشــ)؛ ويسمــون نوعــاً مــن الأغطيــة والفراء يعرف عنــد العرب بـ(الحنبل) بقولهــم (ألفامار)، وهــذه الكلمة الحديثة الآن مأخــوذة مــن الكلمة البرتغالية المهجورة المحرفة عــن العربية مباشرة وهــي (ألفُمْبْرَة)؛ ويسمــون الخس (ألفس)؛ والهديــة (ألفدية)؛ والحرمل وهو الســذاب البري (فرما)؛ وفي الحــلاوة (ألفــاووا)؛ ويقولون في الحَمّة (الفاما)؛ والخياط يسمونه (الفيات)، وأمثال ذلك كثيرة لا أطيل بها الآن.

وأمّــا الشين، فإن معظم السينات التــي في اللغات الأفرنجية يقلبونها شيناً، ولعــل ذلــك هو السبب في أن العــرب نطقوا بأسماء البلــدان التي فيها سين بالشــين، والأمثلة كثيرة يعرفها من لــه أقل اطلاع على جغرافية هذه البلاد في كتب العرب.

وأمّــا الراء، فهي كثــيرة جداً، خصوصاً مع الشين حتى تــكاد لغتهم بسببها تشبه اللغة النمساوية، ولكن الخاء معدومة بالكلية.

وهنــا أذكر أمراً غريباً وهو أنني لما كنت في سرقسطة توجهت في صباح يوم وصــولي إلى أجمل دكان للمزين فيها، وبعــد أن حلقت ذقني وأصلحت شعر رأسي وضمّختته بأنواع الخَلُوق المستعملة عندهم، سألت الرجل عن الأجرة، فقال لي:

«3 ريالات».

فبهــت في قلبي، وأسفت على مجيئــي إليه، ولكنني تجلــدت وأظهرت -مثل الكثير من النـاس- تعارف الجاهل بعكس أهل البديع الذين يظهرون تجاهل العارف. ثم قلت:

«وهو كذلك».

ودفعـت إليـه ورقة قيمتها 25 فرنـكاً، فردّ لي 24 فرنكاً وربعـاً، فعلمت بكل سـرور أن الريـال عند أهل إسبانيا يُساوي جزءاً مـن عشرين منه عند أهل بلادنا، بل هو أقل من القرش الصاغ بقليل.

ولكننـي حينمـا جئت إلى بـلاد البرتغال ونزلـت في لشبونـة اكتريت عربة أوصلتنـي إلى الفنـدق، ولما نزلت منها سألت ترجمـان الفندق عن الأجرة، فقال لي:

«600 ريال».

فقلت في نفسي:

«هذه هـي الطامة الكبرى، وكيف أتظاهر الآن بتعـارف الجاهل وليس معي ورقة تساوي هذه الثروة الجسيمة».

ومع ذلـك تجلدت، وصبرت على مضض الأيـام، واتقيت الله لعله يسهل لي سبيل الخلاص من هذه الورطة، فقلت له بصوت أَبَحّ:

«وهو كذلك، خذ النقود من صاحب الفندق».

وصعدت إلى غرفتـي أضرب أخماساً لأسداس. ولَمَّا أصبح الصباح كان أوّل شيء طلبته هو الحساب، فجاءني بعشرات الآلاف، فقلت وأنا خائف واجم: وكم يساوي هذا كله من الفرنكات؟

فقيل لي:

إنّ الفرنك مائتا ريال.

فكدت أخر لله ساجداً، وصرفت الغلام لأتضرع بالشكر منفرداً، وقد قاسيت كثـيراً من اشتـداد الأزمة المالية علـى هذه البلاد، حتى إننـي كنت أصرف الفرنـك الصحيح المعتـبر بمِائتيّ ريـال، وبمائة وتسعين، وبمائـة وثمانين،

وبمائـة وسبعين، بل بمائة وستين في قلمرية، وعرفت حينئذ أن هؤلاء القوم يلزمهم عَدَدٌ كبير لِقِيمَةٍ قليلة.

ولمّا توالت هـذه الخسائر المالية استخـرت الله في الرجوع إلـى الأندلس. ووصلـت شلمنقـة ورأيت آثارهـا ومدارسها فإنهـا في إسبانيـا مثل قلمرية في البرتغـال، وأكسفـورد وكمبريـج في إنكلـترة، ورجعت منهـا إلى مدريد، فأصابتني النزلة الوافدة، واشتدت عليّ وطأتها حتى كدت أيأس من الحياة لولا مداركة كثير من أصحابي وأصدقائي وعناية الأطباء بشأني.

وقـد كان صاحـب السعـادة طرخان بك طلب مـن البطانـة الملوكية تشريف بمقابلة جلالة الملكة، وأجيب السؤال، ولكن المرض كاد يحول بيني وبين هذا الشـرف الأسنى، غـير أنّ الله سبحانه وتعالى رأف بي فخفف النازلة عني، وبذلك تيسّر لي مقابلة جلالة الملكة، فلاطفتني وتعطفت عليّ كثيراً، وتكلمت معـي في أشتـات العلـوم والأدبيات حتى بهرتنـي من كـثرة اطلاعها، ودار الحديـث ملياً على اللغة العربية وآثار العـرب بإسبانيا وبغيرها، واستطالت المقابلـة مدة تنيف على العشرين دقيقـة، وكان معي حضرة السيد المفضال والأمير الكريم طرخان بك، وسأذكر في الرحلة ما دار بيننا من الحديث[1]،

---

(1) نقل الأستاذ أنور الجندي عن مقال لأحمد زكي باشا بعض الحديث الذي جرى بينه وبين الملكة كريستينا الوصية على عرش ولدها ألفونس الثالث عشر، فكتب:

«لاطفتني وتكلمت معي في أشتات العلوم والأدبيات حتى بهرتني من كثرة اطلاعها، دار الحديث ملياً على اللغة العربية وآثار العرب في إسبانيا.

وفيما هي تكلمني عن الأندلس ومآثره، رأيت الفرصة سانحة فتصيدتها، وعرضت على جلالتها أن تسعى بكل مـا لديها من قوة فعلية في سبيل كشف الغطاء عن بقايـا (الزهراء) التي أنشأها أكبر خليفة إسلامي، وهـو عبدالرحمن الناصر الذي جلس على عرش الأندلس قبلها بسبعة قرون ونصف قرن وثلاث عشرة سنة.

فأجابتني بما بهرني بل بما زادني إعجاباً من الوجهين إن كان هناك مكان للمزيد.

قالـت لي ما معناه: إن الإسبانيين وإن كانت لهم في القرون الوسطى جنايات على الحضارة العربية فليس لهم يـد في هـدم (الزهراء) ولا في تدمير (الزاهرة) التي بناها المنصور بن أبي عامر، بل الجريمة كلها في

ثــم خرجت مــن بين يديها شاكــراً أفضالها على هذه المقابلــة الجليلة، وقد أخــبرني كثير من أهــل البطانة، وخصوصاً صاحــب العطوفة طرخان بك، بأنها أكثر من المعتاد بكثير، فشكرت اللّه.

ثــم لبثت بمدريد ريثما تعافيــت قليلاً من النزلة الوافــدة التي ضربت فيها أطنابهــا الآن، وفتكت بالأهالي فتكاً ذريعاً فمات بها كثير من الشيوخ، وزاد عــدد الوفيات بها وبغيرها من الأمراض في مدريد حتى بلغ ستاً وستين وفاة يومياً، وكان معدل عددها قَبْلاً إحدى وأربعين في اليوم.

ولأجل ذلك أمرني الأطباء بالتوجه إلى بعض البلاد الحارة في جنوب الأندلس، والعبور منها مباشرة إلى مصر متى ظهرت آثار الصحة وعاودتني العافية.

فَقُمْــتُ إلى إشبيليــة (Sevilla) التي كانت تسمى أيضــاً بـ(حمص)، وزُرت جميــع آثارهــا، ودار اللقطــاء فيهــا، وكنائسهــا، وصعدت إلى قمــة المنارة الإسلامية الفخيمة البديعة التي كانت بجانب أحد المساجد، وكانت مستعملة عنــد العرب لرصد الأفــلاك فأصبحت الآن مقراً للناقوس، وزرت القصر (Alcazar) الــذي أنشــأه الإسلاميــون فأنســاني كل ما رأيته مــن العمائر الجميلــة والآثــار الجليلة التي رأيتها في أعظم مدائــن أوربا، وقد وقفتُ فيه متلهفاً، وكنت كذلك الشاعر الذي قال:

قــلــت يــومــا لـــــدار قـــوم تـفــانــوا

أيــــن ســكــانــك الــعـــزاز عــلــيــنــا

هذا الباب واقعة على ناصية المسلمين من عرب وبربر.

وحدّثتنــي الملكــة عن العرب وحضارتهم، فكأنهــا ورثت علم ابن رشد وابن الطفيل وابــن حزم، وكأنها درست في جوامــع قرطبة وطليطلة وغرناطة، على أشياخ الإسلام الذين أرسلوا شعاعاً وهّاجاً من الضياء على كل بلاد أوربا».

(أنور الجندي، أحمد زكي باشا، ص.102–103). (ر. ع.)

فـأجـابــت هــنــا أقـــامـــوا قــلــيــلاً

ثـــم ســـــاروا ولـــســـت أعـــلـــم أيــنــا

ومــن غريــب ما في إشبيليــة أنّ جميع دورها وقصورها لهــا في وسطها فناء في غايــة الإتقان، مغروس بزاهر الأشجار، ومحفوف بفائق العمدان، وفوقه رواق مثــل ما هو معــروف في الإسكندرية باسم (الحضــير)، وعليه عمدان وحنايــا وقواصر مثل التي في الفناء. ولقــد تحسنت صحتي باعتلال هوائها حتى صدّقت من أنشأ مشبباً بها:

هــواؤهــا في جـمـيـع الـدهــر معـتـدل

طـيـبـا وإن حــل فـصـل غـيـر مـعـتـدل

مــا أن يـبـالي الــذي يـحـتـل ساحـتـهـا

بـالـسـعـد أن لا تـحـل الـشـمـس بـالحمل

ولا غرو، فقد اشتهرت باعتدال الهواء وحسن المباني، وهي واقعة على النهر الشهير المعروف بالوادي الكبير (Guadalquivir)، يصعد المدّ فيه 72 ميلاً ثم ينحسر، ولذلك قال شاعرهم:

شـق الـنـسـيـم عـلـيـه جـيـب قـمـيـصـه

فـانـسـاب مـن شـطـيـه يـطـلـب ثــأره

فـتـضـاحـكـت ورق الـحـمـام بـدوحـهـا

هـــزا فَـضَـــمّ مـــن الـحـيـــاء إزاره

ولقد صَدّقت حين حَلَلْتُ فيها قولَ بعض واصفيها:

إن شــرفــهــا غــابــة بـــلا أســـد

ونـــهـــرهـــا نـــيـــل بـــلا تمـــســـاح

وهذا (الشرف) المذكور هو إقليم من أعمالها، كائن على تل عالٍ من التراب الأحمر، ومسافته 40 ميلاً في مثلها يمشي بها السائر في ظل التين والزيتون، واعلم أن الإسبانيين والإفرنج يرسمون اسم هذه البقعة هكذا: (Axarafe) و(Aljarafe)، وهو الآن في الجغرافيا الجديدة لتلك الأقطار عبارة عن البلاد التي في قسم (سَانْ لُوكَارْ لَا مَايُور) أي (سَانْ لُوكَار الكبير) (San Lucar la Mayor) وبعض القرى التابعة لمدينة إشبيلية.

ـم خرجت من هذه المدينة الجميلة قاصداً غرناطة (Granada – Gre-nade) وأنا أردد قول الشاعر فيها:

ذكرتك يا حمص ذكرى هوى

أمات الحسود وتعنيته

كأنك والشمس عند الغُرُو

بِ عروس من الحسن منحوته

غدا النهر عقدك والطود تاجـ

ـك والشمس أعلاه ياقوته

وصرت أثناء الطريق أمر على بلاد وقرى كثيرة تذكرني ما عهدته في بلاد المشرق وخصوصاً المنارات التي كانت قائمة بجانب الجوامع فصارت مجاورة للصوامع، ومآذن المساجد التي أصبحت نواقيس للمعابد، وصِرْتُ أتذكر مجد العرب وعظم دولتهم حتى قدمت غرناطة المعروفة قليلاً باسم (اغْرناطة) ويسميها العرب (دمشق) من باب التشبيه، واسمها مُعَرَّبٌ عن الإسبانية ومعناه: الرُّمَّانَة.

وَصَلَتْ هذه المدينة إلى ما لم تكد تصل إليه مدينة ما، فإنها حينما استولى الإفرنج على معظم بلاد الأندلس انتقلت إليها بقايا المسلمين، فصارت

المصر المقصود والمعقل الذي تنضوي إليه العساكر والجنود، حتى بلغ عدد فرسانها وَحْدَهَا 5.000 ، ورجالها 35.000 ، من غير ضواحيها وأعمالها، فقد كانت جيوشها تبلغ بهم 200.000 يخرجون للقتال من أهل غرناطة والبُشَرَّات (Alpuxarat – Alpujarras) ووادي آش (Guadix). وقد رأيت أن أختم رسائلي المؤتمرية في هذه المدينة التي كانت آخر ملاذ المسلمين.

وَصَلْتُهَا بالليل ونزلت في (فندق واشنطون) وهو على ما علمت فيما بعد من أهل التحقيق والمعرفة قائم -يا للأسف- على نفس مكان المقبرة الملوكية التي كانت ملوك المغرب تدفن بها ويُسَمِّيهَا ابن الخطيب (التربة).

وبعد أن تناولت شيئاً من الزاد عجلت بالاضطجاع، وحينئذ ذهب عني الرقاد لهجوم الأفكار، وتذكر ما وقع بتلك الأعصار، والتفكر في أحوال الدنيا وتقلبها بأهلها، حتى أثقلني السهر وبرّح بي التعب فأغمضت الجفون، وما استيقظتُ إلّا على تجاوب الأطيار فوق أغصان الأشجار كأنّها تقول لي:

تنبّه فقد شق البهار مغلسا
كمائمه عن نوره الخضل الندي
مداهن تِبْرٍ في أنامل فضة
على أذرع مخروطة من زبرجد

فقمت ونظرت إلى الرياض وغابات الأشجار وتدفّق المياه، فَقُلْتُ لله دَرّ الشاعر في وصف مثل هذه المناظر:

رياض تعشقها سندس
توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدي رُباً
لها نظرة فتنت من نظر

وكـــــل مـــكـــان بــهـــا جـنـة

وكـــل طـــريـــق إلـــيـــهـــا سـقـر

ولكني تذكرت قول الوزير ابن عبدون الأندلسي، ولا غرو، فإن أقوالَ الوزراء وزراءُ الأقوال:

يـا نفحة الـزهـر مـن سـراك وافـاني

خـلـوص ريـــاك في أنـفـاس آذار

والأرضـــ في حلل قـد كـاد يحرقها

تَـوَقّـد الـنـور لـولا مـاؤهـا الجـاري

والـطـير في وُرق الأشـجـار شادية

كـأنـهـن قـيـان خـلـف أسـتـار

ثـم طُفْـتُ بالحمـراء (Alhambra)[1] وقصرهـا ومساجدهـا وساحاتهـا وأطلالهـا ورسومهـا وبقاياها التي تذهب بالجَنان وتأتـي بالجُنون، فوقفت باهتـاً حائراً فاقداً اللُّبّ والرشاد من هـذا الإتقان الذي لم يكن يخطر على قلبـي مع ما سمعتـه عنها من الأوصاف وما شاهدتـه من غرائب المباني في غير هذه الدار حتى لقد اشتدّ بي الهيام وكُنّتُ :

أمـــر عـلـى الـديـار ديـار قـومـي

أقـبـل ذا الجـــدار وذا الجـــدارا

ومـــا حـب الـديـار أهـاج وجـدي

ولـكـن حـب مـن سـكـن الـديـارا

ثم خرجت منها وأنا أخاطبها بقول الشّاعر:

---

(1) وهي مدينة ثانية قائمة على قُلّة الجبل، وأمّا غرناطة فهي في سفحه.

وقفت بالحمراء مستعبرا
معتبرا أندب أشتاتا
فقلت يا حمرا ألا فارجعي
قالت وهل يرجع من ماتا
فلم أزل أبكي وأبكي بها
هيهات يُغْني الدمع هيهات
كأنما آثار من قد مضى
نوادب يندبن أمواتا

وعند الباب قدّموا لي دفتر الزيارات، فكتبتُ هذه العبارة التي أملاها الخاطر واليد مرتعشة والفؤاد واجف والعين باكية:

أحقا هذه الحمرا، أحقا أنني فيها

لله هذه القصور وهذه الدور، ولله قوم خلّدوا فخرهم على مدى العصور، هذي آثارهم الباقية تنطق بعظمتهم الفائقة، وتنبه الغفلان إلى بقاء الملك الديان، وأن كل من عليها فان، وتُذَكِّر بني الإنسان بوجوب التعاون على البر والإحسان، والتباعد عن التخاذل فهو الخسران، ويرحم الله عبداً رأى فتذكّر، ونظر فاعتبر.

أحمد زكي
مندوب الحكومة المصرية
في مؤتمر المستشرقين التاسع بلوندرة
يوم الثلاثاء 7 رجب الفرد سنة 1310
(24 يناير سنة 1893)

ثم انتقلت من الحمراء وزرت أسوار المدينة وأبراجها وبعض مناراتها وكثيراً مــن قصور ملوكهــا، ويعلم الله أنني مــا رأيت في طول سياحاتــي شيئاً أدق وأتقــن وأجمل وأكمل مما رأيتــه في هذه المدينة حتى لقد رأيت أن المقري لم يقرب من الحقيقة حينما مدح غرناطة أثناء وصفه للأندلس بقوله:

هــي جنــة الــدنــيــا الــتــي
قــد أذكـــــرت دار المــقــامــه
لاســيــمــا غــرنــاطــة الـــ
غـــراء رائـــقـــة الــوســامــه
بـــروائـــهــا وبمـــائـــهــا
وهــوائــهــا الــنــاي في الــوخــامــه
وريــاضــهــا المــهــتــزة الـــ
أعــطــاف مــن شــدو الحــمــامــه
وبمــرجــهــا[1] الــنــضــر الــذي
قــد زيـــن الله ارتــســامــه
وقــصــورهــا الــزهــر الــتــي
يــأبــى لــهــا الحــســن انقــســامــه

---

(1) مرج غرناطة، يعرف عند الإفرنج بهذا الاسم «La Vega» وهو كلمة إسبانية معناها: المَرْج، ومن الغرائب أنّ الدُّونْ إيجيلاز (D.Eguilaz) وهو من أعيان أهلها، ومن نبهاء المشتغلين بالآداب والآثار العربية قد أطلعنــي علــى صورة إله مصري طولهــا 8 سنتيمترات ومنقوشة بالحــروف الهيروغليفية، وأخبرني أنّ أحــد الفلاحين قد عثر عليهــا في المَرْج أثناء الفلاحة وتقليب الأرض، فنبهتــه إلى وجوب الاعتناء بهذه المسئلة وموالاة البحث لما وراء ذلك من الفوائد التاريخية التي لا تنكر. كما علمت أنّ القوم عثروا بمدينة برشلونة على آثار مصرية كثيرة.

ولقـد كانـت غرناطـة لا يعدلهـا في داخلها وخارجهـا بلد من البلـدان، ولا يُضاهيهـا في اتسـاع عمارتهـا وطيب قرارتهـا وطن من الأوطـان، ولا يأتي علـى حصـر أوصاف جمالها وأصنـاف جلالها قلم البيـان، وكانت في آخر الأمـر قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها، ويقول كُتّاب العرب إن خارجها لا نظـير لـه في الدنيـا، وهو مسيرة 40 ميـلاً يخترقه نهر شنيـل (Xenil – Jenil) المشهـور وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين والجنات والرياضات والقصـور والكـروم محدقة بها مـن كل جهة. ومن عجيـب مواضعها (عين الدمـع) وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثيل له بسواها، ويُعرف عند المؤلفين بهذا الاسم: (Aindamar) مُحَرَّفاً عن اللّفظ العربي.

وما زلتُ أتردد بين هاتيك الديار، وأجوب تلك المعاهد وأنا أرى في كل حجر وفي كل جـدار آيـة ناطقة بعظمـة هذه الأمة ومجدها، وقـد جَرّني ذلك إلى ذكر بعض أمور مما يدل على بلوغ أهل الأندلس أرقى ذروة من ذرى النعيم، وتأنقهم وترفههم للدرجة التي ليس بعدها مطلب أو غاية.

فمـن ذلـك أنّ (اعتمـاد) -وهـي زوجـة المعتمـد وأُمّ أولاده المعروفـة بـ(الرميكية)- رأت ذات يوم بإشبيلية نساء البادية يبعن اللّبن وهُنّ رافعات عن سوقهن يَخُضْن الوحل والطين، فقالت له:

«أشتهي أن أفعل أنا وجواريّ مثل هؤلاء النساء».

فأمـر المعتمد بالعنبر والمسـك والكافور وماء الورد وصَـيَّر الجميع طيناً في القصـر، وجعل لها قرباً وحبالاً من إبرسيم، وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلـك الطين الثمين، وأنالت النفس مُناها، ثم اتفق بعد خلعه أنه حصلت بينهما منافرة كما يحصل عادة بين الأزواج فقالت له:

«والله ما رأيت منك خيراً».

فقال لها:

«ولا يوم الطين».

تذكيراً بهذا اليوم الذي أباد فيه من الأموال ما لا يعلم مقداره إلا اللّه، فاستحيت واعتذرت وسكتت.

وقد مدح بعض الشعراء يعقوب أمير المؤمنين بالأندلس بقصيدة فيها 40 بيتاً، فأعطاه على كل بيت ألف دينار.

وكان بعض ملوكهم إذا جاءته رسل من أعدائه يأمر في الحال باصطناع برك وحولها آساد وأشجار وأزهار كُلّها من الفضة الخالصة والذهب النضار ترهيباً لهم وإيقاعاً للرعب في قلوبهم من غير أن يشافههم بكلمة واحدة، فينال من ملوكهم كل ما يرتضيه.

وقد كان عبدالرحمن بن الحكم أمير الأندلس كثير الميل إلى النساء، وولع بجارية له اسمها (طروب)، وكلف بها كلفاً شديداً، واتفق أنها غضت الطرف عنه ذات يوم وقابلته بالصد والإعراض واقتصرت في مقصورتها، فأرسل يترضاها وهي لا تزداد إلّا إصراراً على الجفاء، حتى أرسل الخصيان يغصبونها على الخروج، فغلّقت الأبواب في وجوههم، فذهبوا إلى الخليفة يستأذنونه في اقتلاع الباب، فأمرهم بأن يسدوه ببدر من الدنانير يرصونها عليه رصاً، ثم جاء بعد ذلك يترضّاها بنفسه ويعتذر إليها، ففتحت الباب وانهالت عليها الأموال، فقال لها:

«كل هذا المال لك دون سواك».

ثم أعطاها حلية قيمتها مائة ألف دينار. فقيل له:

«إن مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك».

فقال:

«إن لابسه أنفس منه خطراً وأرفع قدراً وأكرم جوهراً وأشرف عنصراً».

وفيها يقول:

إذا ما بدت لي شمس النَّهَا

رِ طالعةً ذكّرتني طروبا

ومن ذلك أنّ محمد بن عامر المنصور، وزير الأندلس المشهور، صَنَعَ قصراً من فضة صافية وأهداه للسيدة البشكنشية أُمّ الخليفة هشام، وحمله على رؤوس الرجال، فجلب حبها بذلك، وقامت بأمره عند سيدها الخليفة الحَكَم، حتى قال الخليفة لبعض خواصه:

«إنّ هذا الفتى سَلَبَ عقول حرمنا بما يتحفهن به».

ومن ذلك أنّ الحَكَمَ ثالث خلفاء الأندلس كان له خاصة ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر بقبلي قصره تجمعها داران.

والأعجب من ذلك ما رواه المؤرخون من أن الخليفة عبدالرحمن الناصر المشهور أراد الفصد ذات يوم، فجلس في البهو الكبير المُشْرِف بأعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ الطبيب الآلة وحبس يد الناصر، فبينما هو كذلك إذْ أطلّ زرزور فصعد على إناء ذهب بالمجلس وأنشد:

أيها الفاصد رفقا

بأمير المؤمنينا

إنما تفصد عرقا

فيه محيا العالمينا

وجعل يُكَرِّرُ ذلك المَرّة بعد المَرّة، فاسْتظرف أمير المؤمنين ذلك غاية الاستظراف وسُرَّ به غاية السرور، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعَلَّمَ

الــزرزور، فَذُكرَ له أنّ السيدة الكــبرى (مرجانة) أُمُّ وَلَدِهِ وَوَليِّ عهد الحكم المستنصر باللّه صنعت ذلك وأَعَدّتْهُ لمثل هذا اليوم، فوهبَ لهاَ ما ينيف على 30 ألف دينار.

وأمثال هذه الوقائع أكثر من أن تُذكر.

وأقول إنّ أوّل تبليط حصل بالمدائن كان في قرطبة، وكذلك الإنارة العمومية بالليــل قبل أن يعــرف ذلك أحد من أهــل الأرض قاطبة، فقــد كان السائر يمشي فيها وفي أرباضها على ضوء السرج المتصلة مسافة 10 أميال.

وأَمّــا رسوخ قدمهــم في العلم والعرفان فأمر يشهد بــه العدو والصديق، ولا أذكر منهم الآن سوى أبي القاسم بن فرناس فإنّه أوّل من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وأوّل من فَكّ كتاب العروض للخليل، وأوّل من فَــكّ الموسيقــى، وقد صنع في بيته هيئــة السماء وخيّل للناظــر فيها النجوم والغيــوم والرعود والبروق، وصنع الآلة المعروفة بـ(المنقانة) ليعرف الأوقات علــى غير رسم ومثال، وقــد احتال في الطيران فَكَسَا نفســه بالريش واتّخذ جناحــين وطار في الجو مسافة بعيدة ولكنــه لم يحسن الاحتيال في السقوط فتأذّى إذ غفل عن اتِّخاذ الذَّنَب ولم يتنبه إلى أن الطائر إنّما يقع على زِمِكّاه.

ولقــد كانــت ملــوك الإفرنج جميعــاً تستخــدِم الأطبــاء من العــرب واليهود الأندلسيــين، وكانت الصنائع والفروسيــة والأُبّهة في عهدهم في مزيد، وكان عندهم مواضع شتى للفُرج واللّهو، أمّا علم المساحة والفلك والكيمياء والطب فلــم يكــن إلّا في قرطبــة دون غيرها من سائــر المدن، حتــى إنّ شَانْجُه ملك (لِيُون) المُلَقّب بـ(السمين) اضطرّ إلى أن يُسافر إليها ليأخذ الطِّبَّ عن رجل كان مشهوراً في عصره، فَلَمَّا استدعى به الملك أجابه مع الرسول قائلاً:

«إن كان للملك حاجة إليّ فليقدم عليّ».

ومثـل ذلك الزيج الذي اشتهر به ألفونس العاشر ملك قشتيلية، وصار له به فخـر على ملوك أوروبا، إنّما حَرَّرَهُ له علمـاء العرب كما يشهد بذلك علماء الإفرنج أنفسهم.

ومِمَّا ينبغي ذكره في هذا المقام أنّ القوم ما وصلوا إلى هذه الدرجة إلّا بالعلم والعرفـان، وما أجدر شبابنـا المصريين الأذكياء المتعلمـين أن يقتدوا بأهل الأندلس في ذاك الزمـان، فإنهم كانوا جميعاً أحرص الناس على التمييز حتـى إنّ الجاهـل الـذي لم يوفقه الله للعلـم يجهد أن يتميـز بصنعة ويربأ أن يُـرى فارغـاً عالة على النـاس. وكانوا يقرؤون جميع العلـوم في المساجد بالأجـرة لأنهـم كانوا يتعلمون لأجـل أن يُعَلِّموا الخلائق ويُنَـوِّرُوا الأذهان لا لكي يأخذوا جارياً أو معلوماً، ولذلك كان العالم منهم بارعاً لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يتعلم، ومثلهم الآن معظم علماء أوربا.

وممـا ينبغي إضافته للعلم مراعاتهم للشـرع الشريف حتى لقد كان للدولة الأمويـة في أيام عِزّ الأندلس هيبة وتمكين ناموس من قلوب العالم، فكان في ذلـك ضخامـة لدولتهم ورسوخ لأقدامهم. وقد ذكر ابـن حيان وقائع كثيرة يستدل منها على توجه الحكم على خليفتهم أو على ابنه أو على أحد حاشيته المختصـ به، وأنهم كانوا في نهايةٍ من الانقيـاد للحق لهم أو عليهم، وبذلك انضبطـت لهم الأمور، وكبرت الهِمَم، وترتبـت الأحوال، وتوطدت القواعد. ولَمَّا خرقوا هذا الناموس تهتـك أمرهم، واضمحل شأنهم، وفشلوا، وذهبت ريحهم، حتى قال شاعرهم:

ممـا يـزهـدني في أرضـ أنـدلـس

تـلـقـيـب مـعـتـضـد فـيـهـا ومـعـتـمـد

ألــقــاب مملـكــة في غــيــر مــوضــعــهــا

كــالــهــر يــحــكــي انــتــفــاخــاً صــورة الأســـد

ومــا زالوا علــى هذا الاضمحلال وهذا الانحطاط حتــى تقلبت الدول، وكان الخرق لا يزداد إلا اتساعاً، وصدق عليهم قول الشاعر:

فَبَيْنَا نَسُوسُ الناس والأمــرُ أَمْــرُنَــا

إذا نــحــن فــيــهــم سُــوقــة نُــتــنــصــف

فوقع الاختلاف بعد ذلك الائتلاف، وأعيا العلاج حكماء الرجال، وعصفت عليهــم ريــح العدو والحرب سجــال، حتى لقد تمكن منهــم بالتفريق وإلقاء العداوة بينهم وبين بعضهم بقبيح المنافسة ومرذول الطمع، وآل أمرهم إلى أن استقــل العُمّــال وأقام كل واحــد منهم نفسه ملكاً في بلــد واحد، وصاروا يطمعون في بعضهم ويستجيشون بالإسبانيين وبطاغيتهم ويسلمونه حصون المسلمــين تشفيــاً لبعضــ غاياتهــم، حتى إنّ بعضــ ملوك الطوائــف واسمه المأمــون -قبّحــه الله وأخزاه- بعث إلــى ملك قشتالة المعروفــة أيضاً باسم: قشتيليــة (Castilla) يستنصــره علــى الموحدين ويسألــه أن يبعث له جيشاً مــن الــروم يجوز به إلــى العــدوة - أي مراكش- لقتال يحيــى ومَن معه من الموحدين، فقال له ملك قشتيلية:

«لا أعطيك جيشاً إلّا على شريطة أن تعطيني 10 حصون مما يلي بلادي كما أختارها لنفســي، وإذا مَنّ الله عليك ودخلتَ مدينة مراكش تبني للنصارى الذيــن يسيرون معك كنيسة في وسطها يظهرون بهــا دينهم ويضربون فيها نواقيسهــم أوقات صلواتهم، وإن أسلــم أحد من الروم لا يُقبل إسلامه ويُرد إلــى إخوانه فيحكمون فيــه بحكمهم، ومن تنصّر مــن المسلمين فليس لأحد عليه من سبيل».

فأسعفه النذل الجبان في جميع ما طلب من غير تبصّر في العواقب.

ويُشّبــه ذلك أيضــاً ما جرى في واقعــة العقاب[1]، وذلــك أنّ محمد الناصر -المشؤوم على المسلمين وجزيرة الأندلس بالخصوص- جمع جموعاً اشتملت علــى نحــو 600.000 مقاتل، وداخلــه الإعجاب والغرور بكـثرة من معه من الرجال فصافّ الإفرنج، فكانــت الدائرة عليه وعلى المسلمين، فإنّ الإفرنج دهموهــم وهم على غفلة وغير أهبة، وخلا بسبب هذه الواقعة أكثر المغرب، واستولى الإفرنج على معظم الأندلس إذْ لم ينج من الستمائة ألف غير عدد يســير جِدّاً لا يقــارب الألف، وكانت هــذه الواقعة هي الطامــة الكبرى على الأندلس بل والمغرب، وما ذلك إلّا لسوء التدبير، فإنّ الناصر ووزيره استخفّا برجــال الأندلس العارفــين بقتال الإفــرنج، وشَنَقَا بعضهــم، وظَنَّا أن كثرة الأجنــاد تُغني عن دربــة القواد، ففسدت النيات، وتفرقــت الكلمة، وتخاذل المسلمون، حتى إن جماعات الموحدين لم يسلوا سيفاً، ولم يشرعوا رمحاً، ولا أخــذوا في شيء من أسباب الدفاع، ولا أهبة القتــال، بل انهزموا لأوّل حملة الإفرنج عليهم، قاصدين لذلك، والعدو يبلي فيهم، ويقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وهــم ياللنذالة ياللنذالة- معرضون عنه، بل عن الدفاع عن أنفسهم، ويقول المؤرخون: إنّ الناصر ثبت في ذلك اليوم ثباتاً لم يُر لملك قبله.

ولم يــزل حالهم على هذا الاختــلاف حتى حينما تضعضــع أمرهم، وضيق عليهم العدو أشد الضيق، وأحدق بغرناطة من كل مكان، ومع ذلك لم تنقطع شأفة الشقــاق حتى كان في هذه المملكة الصغيرة ثلاثة ملوك[2]، أحدهم في

(1) جمــع عقبة لكثرة العقبات التي بجانب مدينة طلوســة «Tolosa» في شمال إسبانيا، وتعرف هذه الواقعة عند الإفرنج بما هو ترجمتها «Las Navas de Tolosa"، وقد أشرتُ إلى الراية التي أخذها الإسبانيون منهم، وهي في برغش.

(2) فمــن أكــبر المصائب أنّ أبا عبدالله (المعروف عند الإفرنج باسم «Boabdil» وهو الذي اضطر فيما بعد لتسليــم غرناطــة للإسبانيين) ثار على عمه أبي القاسم ملــك غرناطة، فساعده على خلع الطاعة وشق عصــا الجماعــة الملك فردينند الكاثوليكي طمعــاً في اشتداد الخصام واحتــدام الفتنة ليضعف كل من الأميريــن المسلمَيْن صاحبه ويبقى فتح غرناطة هيناً عليه. ثــم توفي أبو القاسم فخلفه على سرير الملك

غرناطـة نفسها، والثاني في أحد ضواحيها المعـروف بـ(ربض البيازين)[1]، والثالـث في عملهـا القريـب منهـا وهــو مدينــة وادي آشـ المعروفـة أيضاً بـ(وادياشـ) وبـ(وادي الآشـات)، وكانوا قد أحسوا بهـذا الخطر إحساساً لا مزيـد عليـه، حتى[2] إنهم استبدلـوا الأقوال التي كانـت تُستعمل عادة في ضرب السكة بآيات وعبارات توافق مقتضى الحال، وقد رأيتها منقوشة على الدراهـم والدنانير المحفوظة في متحف مدريد، وعند الماجد الفاضل الدون أنطونيـو فِيفِسـ[3] (D. Antonio Vives) وهـو من علمـاء أهلها المشتغلين بالعربية وبفن النقود، وذلك مثل:

أبـو عبـدالله المذكور، فلم يلتفت فردينند إلى ما بينهما من سابق المؤالفة والمحالفة، بل استضعفه ورأى الغنيمــة بـاردة، فهجم عليه بجيوش قشتلية وأراغون وبما جاءه مــن المدد الكثير من أوربا، ومع ذلك لم يتمكن من فتح غرناطة إلا بعد ست سنوات، فإنه في آخر الأمر تمكن من حصارها ثمانية شهور وساعده نــزول الثلج وكلب الشتاء على قطع الطرق وتضييق الحصار، فجاءتـه الملكة إيزابلا لتحضر هذا الفتح بنفسها وتتمتع بالدخول إلى غرناطة.

وقـد تم التسليـم بشروط وامتيازات تدل علــى أن المدينة كان في وسعها استمــرار الدفاع، فإنه تقرر أن الفاتحـين لا يمسون شيئاً من أمـوال المسلمين ولا شرائعهم ولا ديانتهـم ولا حريتهم، وألا يتعرضوا لهم بــأيّ وجه كان، بل إنهم يردّون إليهم أسراهم من غير فدية، ومما يمدح عليه المسلمون وينبغي تسطيره في بطـون التواريـخ تخليداً لمكارمهم أنهم اشترطوا أن يكون لليهود كل هذه الامتيازات أيضاً، وعلى هذه العهود خرج أبو عبدالله من غرناطة وسلّم مفاتيحها لفردينند وإيزابيلا.

ويقـول المؤرخـون العصريون إنــه أذرف الدموع حينما رمى ببصـره إلى هذه المدينــة التي كانت في يد المسلمـين منذ 500 عام تقريباً فاضطرته الأقدار لتركها عامرة آهلة تفوق كل مدينة سواها. وقد رأيت في بعض التواريخ الإفرنكية أنه حينما خنقته العبرة وأفحمه البكاء قالت له أمه بيتاً من الشعر معناه:

انتحب مثل النساء على ملك لم تقدر على حفظه مثل الرجال

ولم أقـف لــلآن على لفظ هذا الشعر بالعربية غير أن الشاعر الأديب محمود أفندي واصف قد نظمه في هذا البيت:

ابك مثل النساء ملكا مضاعا × لم تحافظ عليه مثل الرجال

(1) هـذا المحـل سمي كذلك لكونـه كان سوقاً لأناس اتخذوا تربيــة الباز حرفة لهم، ويسمــى عند الإفرنج: «Albaicin».

(2) هــذا الاستخــراج مما ينبغي الالتفات إليه، وأقول إنه مما لم ينتبه إليه أحد من العلماء الباحثين على ما أعلم، وهذا من ضمن الفوائد التي تنتج من علم النقود والمسكوكات.

(3) انظر النبذة التي وضعتها بخصوص أسماء الأعلام. (السفر إلى المؤتمر، ص.426).

(قـل اللهم مالك الملـك. تؤتي الملك من تشاء. وتنزع الملك ممن تشاء. وتعز من تشاء. وتذل من تشاء. بيدك الخير. ولا غالب إلّا اللّه).

ومثـل: (غرناطـة حاطها اللّه). (غرناطـة حرسهـا اللّه). (مالقة حاطها اللّه). (المرية حرسها اللّه).

ومثل: (بحمراء غرناطة). (نصر من اللّه وفتح قريب).

ومثل: (العاقبة للمتقين).

ومثل: (وما النصر إلا من عند اللّه).

ومثل: (وما النصر إلا من عند اللّه العزيز الحكيم. صدق اللّه العظيم).

ومثـل: (يأيهـا الذيـن آمنوا اصـبروا وصابـروا ورابطوا واتقـوا اللّه لعلّكم تفلحون).

ومثل: (الأمير فلان أعانه اللّه ونصره). أو (أيده اللّه ونصره).

وجميـع هذه العبارات لم تكن مستعملـة في نقودهم قبل الأيام الأخيرة التي أعقبهـا انقراض دولتهم. وما زالوا علـى هذه الفتن حتى انمحى أثرهم من الجزيـرة، ولقي مَنْ بقي فيها من أنواع الاضطهـاد والهوان ما سأفصله في الرحلة إن شاء اللّه.

وممَّـا ينبغي ذكره في هذا المقـام، أنهم قد شهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء بأنهم لَمَّا تَمَّ لهم في ظرف أربعة عشر شهراً فتح إسبانيا كلها ما عدا مغارات وصخور أستوريش (Asturias) لم يتجاوزوا الحدود، ولم يشطوا في الطلبات كمـا فعلته جميـع الأمم الفاتحة، بـل أبقـوا للمغلوبين أموالهـم وشرائعهم وديانتهـم مكتفين بضرب الجزية وبشرف السيـادة والسيطرة[1]، بل إنّه لم

(1) وكذلـك السلطان محمد الثاني لما فتـح القسطنطينية وبلاد الأغارقة (La Grèce) ترك أهلها يتمتعون بحياتهـم بكل سلام وأمان، وأباح لهم ممارسة ديانتهم كأنه لم يطرأ عليهم شيء من الانقلاب، وجرى

يجـل قط بخواطرهم إلزام أهل الجزيرة بالدخـول في دين الإسلام، ولكن لَمَّـا سقطـت غرناطـة اشتدت وطـأة المحكمة المعروفـة بـ(محكمـة التَّحَرِّي القسيســي) (Inquisition)، فكان لها من القســوة مع التنظيم في ارتكاب الفظائع ما يخجل له كل من في قلبه ذرة من المروءة والإنسانية.

وهــذه المحاكم قد أمــر الباباوات بإنشائها لخدمة الديــن ظاهراً والسياسة باطناً، ولكــن الإسبانيين أضافوا عليها أعمالاً بربرية وحشية تقشعر لهولها الجلــود، وتجمد منها الدمــاء في الشرايين، فمن ذلــك: إحراق الملايين من الكتــب النفيسة، وإبــادة الآلاف المُؤَلّفة من النفوس البريــرة البريئة بأنواع العذاب والإحراق والإغراق، وغير ذلك مما لا يكاد يخطر على بال.

وعندمــا سقطت غرناطة أراد الكردينال شمينيس (Xéminès) أن يتنصّر جميع المسلمين الذين فيها مع مخالفة ذلك للمعاهدة الصريحة التي عقدت مع أهــل غرناطة وقت التسليــم. ولما كانت عملية التنصــير تستوجب زماناً طويلاً أراد الكردينال أن يصل إليها بغاية ما يمكن من السرعة، كما تم فتح غرناطة في وقت قريب، فأرسل قساوسته يعظونهم ويضطهدونهم كما يشهد بذلــك نفس مؤرخيهم، وما زالوا بهم حتى أخضعوهم واضطروهم للتعميد، فدخــل بهذه المثابة خمسون ألف نفس في دين لا يعتقدونه ولا يقولون به، ويا ليتهم أبقوهم على ذلك بل جاء الكردينال تركماده (Torquemada) وزَيَّنَ لإيزابــلا أنهم يُظهرون خلاف ما يُبطنون، وأنه يسوغ حينئذ مصادرتهم في أموالهم وإعدامهم الحياة، وقد كان.

ولقد صدق على العرب ما قاله أحد ملوك فرنسا (وهو شارل مارتل) حينما فــزع إليه أكابر دولته لَمَّــا رأوا امتداد فتوحاتهم وسرعــة توغّلهم في البلاد،

على سننه الشريف خلفاؤه من بعده.

فإنّه قال لهم ما معناه:

«الـرأي عنـدي ألا تعترضوهم في خرجتهـم هذه فإنهـم كالسيل يحمل من يصـادره، وهم في إقبال أمرهـم، ولهم نيات تُغْني عن كـثرة العدد، وقلوب تُغْني عن حصانة الدروع، أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتّخذوا المساكن ويتنافسوا في الرياسة ويستعين بعضهم على بعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر».

فـكان كذلـك بالفـتن التـي استدامـت بـين البربر والعـرب، وبـين العرب وبعضهم، وصار بعض المسلمين يستعين ويستجيش على بعض بمن يجاورهم من الأعـداء، وانقلب الموضوع، وتبدّلت الأحوال. فقد أجلى المسلمون في أوّل الأمـر جميع أهل الجزيرة وأقصوهم إلى آخـر حدودها شمالاً حتى لم يبق منهـم إلّا 300 رجل مع ملك يُسميه العـرب بلاي، ويسميه الإسبانيون بلايو (Pelayo)، ويسميـه الإفرنج بـلاج (Pélage)، فالتجأ هـذا العدد القليل بمكان يُعـرف عند العرب بالصخرة، ويُعرف عنـد الإفرنج الآن باسم جبل كوفادونجـا (Covadonga)، ولم يزل المسلمون يلحون عليهم بالقتال حتى مـات أصحابه جوعـاً، وبقي في 30 رجلاً و10 نسوة، ولا طعام لهم إلّا العسل يشتارونـه من خـروق بالصخرة فيتقوّتون بـه، حتى أعيـا المسلمين أمرهم واحتقروهـم وقالوا: «ثلاثون علجاً ما عســى أن يجيء منهم»، وما علموا أن الائتلاف والاتحاد من جهة القشتاليين، والتغابن والتخاذل من جهة أبنائهم وأعقابهـم، جعـل لهؤلاء (الثلاثين علجاً) من القـوة والكثرة ما لا خفاء به، حتى قهـروا العرب وأجلوهم بالمـرة وأذاقوهم أنواع الـذل والهوان مما هو مسطور في كتب التواريخ، وسَأُلِمُّ ببعضه في الرحلة إن شاء الله.

واعلـم أن إخراج العرب من إسبانيا أَضَرّ بهـذه المملكة وبأهلها ضرراً بليغاً لم يحصـل له نظير في مملكة من ممالك العـالم على الإطلاق، فإنّها كانت

في أيـام العرب عامـرة زاهرة، بالغة من الحضـارة والجلالة ما هو مشهور معلـوم، وكان عدد سكانها في أزمانهم 40 مليوناً فأصبحت الآن، مع الرجوع إلـى العمـارة وانتظام الأحوال بعضـ الانتظام ولمّ الشعـث ورمّ الرث ورقع الخـرق ورتق الفتق، لا تحتوي على أكثر مـن 17 مليوناً من النفوس، فلذلك تـرى أغلب أراضيهـا خالية، وأكـثر مزارعها خلوية، ومصـادر الثروة فيها مهملـة، وأصول الاسـترزاق معطلة. ولا أريد الإطالة بذكـر الأسباب، وإنّما أقتصـر على إيـراد شيء قليل يـدل على ما يضطرني حجم هـذه الرسائل وموضوعها للإجمال والإقلال في المقال.

وذلـك أنّ الملـك فيليـب الثـاني وَحْدَهُ طرد مِمَّـن بقي مـن المسلمين ما بين 600 ألـف و700 ألف نفس، وكانوا كلهـم لا يشتغلون بغير الزراعة والتجارة والصناعـة، لا يعرفـون استعمـال السـلاح بأي حـال من الأحـوال، وكانوا مُفيدين نافعين لانهماكهم في الشغل والعمل في بلاد اشتهر أهلوها بالبطالة والكسـل، وكان القوم يضطرونهم للتظاهـر بالنصرانية، ويكثرون مع ذلك مـن تعذيبهم واضطهادهـم ومصادرتهم وتجشيمهم أنـواع الأهوال التي لا تخطر على البال، حتى إنهم لَمَّا بلغ الضيم بهم منتهاه نزعوا إلى الثورة وشقّ عصـا الطاعة، فاسترسلوا لداعي الفتنـة، ولكن أي فتنة وهم قوم لا يدرون شيئـاً مـن الطعن والضـرب، ولذلك لم يكن علـى الدولة سـوى إرسال نفر قليلين من جنودها لإخماد هذه الشبه ثورة الضعيفة التي لا تُذْكَر إِخْمَاداً تَمَّ في أقلّ من لمح البصر.

ولقد رقّت لبلواهم حينئذ دولة فرنسا حيث رأتهم أناساً مستضعفين لا ناصر لهم ولا معين سوى انكبابهم على إتقان الصنائع وإخصاب الأراضي، ولذلك راسلهم ملك فرنسا هنري الرابع (وقد أشرنا إليه أثناء كلامنا على التماثيل والأنصاب في باريس) ووعدهم بالإمداد والإنجاد، وأنه يجعلهم تحت حمايته

حتـى لا ينالهم ضير ولا أذى، ولكـن الدهر كان لهم بالمرصاد، وشؤم الطالع ونحسـ البخت من ورائهم، أينما وَجَّهُوا وجوههم لا يرون إلّا نكداً وبؤساً، ولا يلقون إلا انتقاماً وتعساً، فقد قضي عليهم ألا يخلصوا من ورطة إلّا وقعوا في شر منها، وألا يسلكوا سبيلاً للنجاة إلّا انقلب عليهم سبيلاً للهلاك.

ولله في خلقـه تدبير، سبحانـه قسّم الحظوظ فلا عتـاب ولا ملامة، وذلك أنهـم لما تلهفـوا بقدر ما تلهفوا، ثـم استنشقوا روح الأمـل القليل بمساعدة هـذا الملك الجليل، لم يلبثوا أن انقلبت أمانيهـم خسراناً عليهم ووبالاً، فإن أحـد الكُتَّاب في نظارة الخارجية بفرنسا خان الملك وأذاع هذا السر، وأعلم ملك إسبانيا بما عزمت عليه فرنسا، فكان ذلك سبباً للتعجيل في تفريقهم، والإسراع بتمزيقهم، والمبادرة لطردهم (وهُمْ بَقِية بَقايَا البَقَايَا بالأندلس)، غير أنهم كانوا شديدي التعلق بالبقاء بالأندلس للتمتع به واستنشاق نسيمه، فعرضـوا علـى الملك أن يدفعـوا له مليونين مـن الدنانير ثمنـاً لإبقائهم في أرضـ مهادهم، فلم يرض فيليب بذلك على الإطلاق، ولكنهم لشدة تعلقهم ببلادهـم أنفوا من الخروج مؤثرين الذل فيهـا على العز في غيرها، فالتجأ نحـو 20 ألفـاً منهم إلـى الجبال، ولم يكـن لديهم من وسائـل الدفاع سوى الحجـارة والمقلاع، وهي من الوسائل التي لا تفيـد شيئاً، ولذلك ما لبثوا أن اضطـروا للتسليم، ثم صار نقلهم خارج المملكـة، فَفَقَدَ فيليب بذلك أفضل رعاياه وأكثرهم حذقاً ومهارة.

وقـد لجـأ أغلب من نجـا بحياتـه من هـؤلاء الأندلسيـين المطروديـن إلى أفريقيـة وطنهم الأوّل، وأدخلوا بها من الصنائع والفنون ما جعل صحاريها جنانـاً وبواديها نعيماً. وشخص بعضهم إلى أرضـ فرنسا في عهد مَارِي دُو مِدِسِيس، ثم بارحها الذين لم يرضوا بتغيير دينهـم إلى أرض تونس، وأما الباقـون فتنصروا واستقـروا بإقليـم بروفنسـة (Provence) ولانجدوك

(Langdoc) ، بـل ذهب بعضهم إلى باريـس واستوطن بها وكانوا معروفين متميزيـن عن بقية القوم ولكنهم مع توالي الزمـن امتزجوا بالأمة امتزاجاً تامـاً فاستفادت فرنسا من حيث خسـرت إسبانيا. وهذه سنة الله في خلقه، تتداخل الأمم في بعضها بالاضطهـاد وبالفتوحات، وقد قرّر العلّامة فولتير هذا الموضوع.

ولقـد أبقى العـرب في إسبانيا آثـاراً مادية كثيرة لا يزال بعضهـا باقياً إلى يومنـا هذا، كما أنهم خلدوا فيها كثيراً من النظامات والقوانين والسياسات والتراتيـب والأحكام مما يراه الإنسـان في هذه البلاد حتى اليوم، كما أنهم كان لهم مؤثر كبير في الأخلاق والآداب حتى لقد رأيت في أخلاق أهل إسبانيا أخـلاق العرب وشهامتهم وكرامتهم، فقد لقيـت فيهم حسن الوفاء وحميد الطبـاع والتحبب إلى الغريب والفرح بإفادته وإعانته سواء كانوا يعرفونه أو لا يعرفونـه، وذلك مِمّا يجعلني أفضلهم جهـاراً وأشهد على رؤوس الأشهاد بـأن أخلاقهم أدمث وألطف وأشرف مـن جميع الأمم التي طفت ديارها في هـذه الرحلة المستطيلة، وسأشرح ذلك بالتفصيل عند الفرصة، إعطاءً لكل ذي حـق حقه، وتقريراً للوقائع كما هـي، حتى إنني وجدت فيهم من الطباع النبيلـة ما قد نسيه أهل البلاد العربية، وإنني إذا تعصبت لأمة من الإفرنج فإنّمـا يكـون ذلك لأهل إسبانيـا حيّاهم الله وبيّاهم، فقـد آنستُ فيهم وفي بلادهـم، خصوصاً أيام كنت أجهل لغتهم وليـس لي من صديق فيهم وقبل وصـولي إلى مدريد، ما يجعل لساني يتلـو آيات شكرهم في كل ناد، ويفصح بمفاخرهم وآثارهم في كل واد، على توالي الآماد، وأكرر قول الأندلسي على جميع البلاد:

تلك الجـزيـرة لسـت أنسـى حسنها

بـتـعـاقـب الأحـيـان والأزمـان

الخاتمة[1]

بعد أن زرتُ غرناطة وكتبت رسالتي الأندلسية التي لم يتيسر لي أن أورد فيها (إلّا) جـزءاً من عشرين مِمَّا وقفت عليه من أحوال الأندلس وما رأيته فيها مـن آثار العرب وبقية أخلاقهم وغـير ذلك مما قد يستغرق مجلداً ضخماً، قُمْـتُ إلى قرطبـة[2] وشاهدت المعاهـد والبقايا في هذه البلـدة الشائقة بل الجنة الرائقة التي يسقيها الوادي الكبير وتحفها أشجار الليمون والبرتقال والرمـان فينتشر أريجها ويضوع نفحها فيتعطـر هواؤها ويطيب المقام بها، ولم تصل مدينة إسلامية إلى ما وصلت إليه قرطبة من كثرة المساجد، فإنها بلغت فيها 1600 مسجد، وأوصلها آخرون إلى ما يزيد عن ضعف ذلك.

وأهم ما رأيته فيها هو المسجد الجامع الذي لا نظير له في العالم الإسلامي، وقـد كان في مكانه كنيسة، فاشترى المـكان عبدالرحمن الداخل بمبلغ مائة ألف دينار، ثم صرف على بنائه وتشييده ثمانية آلاف، ولكن الملوك والخلفاء الذيـن أعقبوه لم يقتصروا على ذلك بل رأوا من الضرورة توسيعه والزيادة فيه، وعـدد هؤلاء الخلفاء ثمانية، وكان كل واحـد ينفق بقدر سعته، ومنهم الحَكَـم أنفق وحـده أكثر من 161 ألف دينار، وكُلّهـا من فيء المسلمين الذي يخصّ بيت المال وحده (وهو عبارة عن خُمس الغنائم كما هو معلوم).

ولَمَّـا جاء المنصور بن أبي عامـر، وزير الأندلس المشهـور، وعزم على زيادة المسجـد ليكـون مناسباً لاتساع قرطبـة وزيادة سكانهـا، كان يُحضر أرباب الدور التي يريد نقلهم عنها فيقول للواحد منهم:

«إن هــذه الدار التي لك يا هذا أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين من مالهم

---

(1) السفر إلى المؤتمر، ص.438–440. وقد وردت هذه الخاتمة بذيل (كمالة الرسالة الأندلسية) التي كتبها أحمد زكي باشا بعد عودته إلى مصر، ولكن لعلاقتها بموضوع الرحلة أثبتناها هُنَا. (ر.ع)

(2) يقول العرب إنّ معناها باللغة القوطية: (القلوب المختلفة)، وقال بعضهم: (أجز واسكنها).

وفيئهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم، فشطّط واطلب ما شئت».

فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يُضاعف له وأن تُشترى بعد ذلك له دار عوضاً عنها، حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة فقالت:

«لا أقبل عوضاً إلّا داراً بنخلة».

فقال:

«تُبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال».

فاشْتُريت لها دار بنخلة، وبُولغ في الثمن (وهو دليل على عناية القوم بأشياء المشرق وكثرة حنينهم إلى النخل الخاص ببلادهم الأصلية. ولعبدالرحمن الداخل ولغيره من الملوك قصائد جليلة في مخاطبة النخل).

وقد استمر المنصور في أعمال الزيادة بالجامع مُدّة سنتين ونصف، وكان يخدم فيه بنفسه كأحد العمال وكان قصده الزيادة في الإتقان والوثاقة دون الزخرفة.

واعْلَم أنّ هذا المسجد أصبح الآن عبارة عن كنيسة كتدرائية جامعة، وقد بقيت معالمه الرئيسية على ما هي عليه، وأقسم بالله أنني أكثرت من البكاء حينما درت في صحونه وبين عمدانه ووقفت في محرابه وتأملت ما فيه من غرائب الإتقان التي لا تخطر على بال مع الفخامة والضخامة وهو متجلبب بجلباب من الجلالة توجب المهابة التعبدية في نفس الزائر ويجعله يشعر حقيقة بوجود خالق معبود قَسَّمَ الحظوظ وقَدَّرَ الأرزاق وأراد ما أراد.

ولا أتصوّر أن الخشوع الديني والخضوع التَّعَبُّدِيّ يُحدث في نفس أيّ إنسان في أيّ معبد من المعابد التي أقامتها جميع الأمم على اختلاف نِحَلها ومقالاتها بكيفية أكثر وأظهر وبانفعال أتمّ وأكمل مِمَّا رأيته في هذا الجامع الذي يحتوي على 1293 عمود من مختلف الرخام والصوان، وكلها منقوشة

التــاج والقاعدة بكيفيات تخالف بعضهــا. وقد كانت قبته مستندة على 365 عمود من نفيس المرمر، وبلغ مسطحه 23150 ذراع مربع.

وأمّا المحراب، فقد رأيته مصنوعاً من أحجار دقيقة مختلفة الألوان متركبة مع بعضها على نظام الفص والفسيفساء بحيث تحدث منها أشكال متناهية في الجمــال، وآيات قرآنيــة وأحاديث نبوية، وإذا نظر لهــا الإنسان من ذات اليمــين رأى ألواناً وأضواء وأشكالاً وتراكيب تخالف كل ما يراه لو وقف جهة الشِّمَــال، وكذلــك الأمر فيما لو وقف في الوسط، أو تقــدم أو تأخر، وهكذا. وخُلاصــة القول إننــي أتصور هــذه القبلة مركبة من أحجــار كريمة دقيقة مرصوفة بجانب بعضها بأكمل ذوق وأحسن أسلوب.

ثــم خرجت من قرطبة منقبض الصدر مكلــوم الفؤاد ولم أرض برؤية شيء غير المسجد في عاصمة الأندلس العربية.

الفصل الخامس

كمالة الرسالة الأندلسية[1]

وهي:

نُبذة في امتزاج العرب بالعجم في إسبانيا والاستشهاد على ذلك بالأسماء والألقاب

اعْلم أنّ كثيراً من أشراف العائلات الإسبانية الأصلية امتزجت بالعرب امتزاجاً كُلِّيّاً، ودخلت في دين الله القويم، ولكنها لم تغير ألقابها الخاصة بها لِمَا كان لها بالطبع من الجاه والحسب، وقد نبغ منها كثيرون.

مثال ذلك: ابن بُونُه، وهو اسم لكثير من أدباء الأندلس، وأصله الإسباني: (Bono) و(Bueno) ومعناها: الطيب والجيد. ولا تزال عائلات إسبانية كثيرة بهذا الاسم إلى الآن.

ومثل: ابن بيبش (وهذا هو الاسم الذي دعاني لتحرير هذه الكمالة)، وهو اسم لجملة أدباء أندلسيين منهم الغرناطي اللغوي الأديب: أبو عبدالله محمد بن بيبش (Ibn Vivax) من شيوخ وزير الأندلس المشهور بابن الخطيب. وأصل اسم العائلة من كلمة إسبانية لاتينية: (Vivas) و(Vives) مُشتقة من فِعْلٍ معناه: الحياة والعمر والمعيشة. وربما كان صاحبنا الدون أنطونيو فيفش المذكور بالمتن من نسل هذه العائلة، فإذا صحّ ذلك الظن تكون أصلها إسبانية ثم استعربت ثم استسبنت (أي صارت إسبانية كما كانت)، ويكون الحكم كذلك في بقية العائلات المذكورة في هذه النبذة.

---

(1) وردت (كمالة الرسالة الأندلسية) في كتاب: (السفر إلى المؤتمر)، ص.426-437. وكان أحمد زكي قد نوّه في مقدمة الكتاب (ص.4) بأهميتها إذ قال: «وأما (كمالة الرسالة الأندلسية) فهي تستحق من العناية ما لا يقل عن ذلك، وحسبي أنني طرقت بها باباً جديداً توصلت منه إلى منهاج من التحقيق يشهد الله بمقدار ما عانيته فيه من التعب والتنقيب والمراجعة وكل ذلك لا يخفى على فطانة أهل الإنصاف ومحبي الحقائق العلمية».

ومثـل: ابن بشكـوال (Ibn Paxcual) وهـو الشيخ العالم أبـو القاسم خلف بـن عبد الملك بن بشكوال، من مشاهير المؤرخين مـن أهل قرطبة، وله كتب كثيرة جزيلة الفائدة منها كتاب (الصلة) في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم محمحدثيهـم وفقهائهم وأدبائهم، وهـو حُجّة ثقة، واسمـه مشتق من (Pas-cual)، مـن كلمة لاتينية: (Paschalis)، ومعناهـا: المُنتسب لعيد الفصح. ولايزال بإسبانيا وأوربا عائلات كثيرة بهذا الاسم.

ومثل: ابن الأقشتين، وهو لقب لكثير من الأندلسيين منهم: الأديب محمد بن موسى بن هاشم، وهذا الاسم من كلمة إسبانية: (Agustin)، وفرنساويتها: (Augustin)، ولاتينيتها: (Augustinus)، ومعناها: العظيم الجليل.

ومثـل: ابن الباذش، وابـن البيذش (Ibn al–Pedex)، وهـي كلمة إسبانية لاتينية نَصَّ ابن الأبار على أنّ معناها: القَدَمَان أي الرِّجْلان (Pedes) وهو لقب لأديب غرناطي توفي سنة 528هـ.

ومثـل: ابن بُـرَّال (Borrel) و(Burriel)، وهو أبو بكر، مـن مشاهير أدباء الأندلس، ولا يزال لَقَباً لعائلات إسبانية كثيرة.

ومثـل ابن بشتغير (Ibn Baxtagair)، وهو من أدبـاء الأندلس، واسمه: أبو جعفر، ولقبه من كلمة لاتينية: (Bastagarius)، معناها: المُوَكَّلُ بنقل أمتعة الدولة أو الكنيسة في الاحتفالات العمومية.

ومثل: الرشاطي، وهو النَّسَّابَة الأندلسي: أبو محمد الرشاطي (Arroxati)، وهـذا الاسم مشتق من كلمة إسبانيـة (روسيتا = Roseta بمعنى: الوريدة، تصغير وردة).

ومثـل: ابن الرومية، وهو لقب لأحد مشاهير علماء النبات من أهل إشبيلية، وبما أنّ عادة العرب النِّسْبَة إلى الأب لا إلى الأم، إلّا في أحوال استثنائية قليلة

جِـدّاً، فذلـك يخيل لي أنهم أبقوا له هذا اللقب دلالـة على أصله، كما فعلوا بالنسبة لابن القوطية (La Goda) بالإسبانية و(La Gothe) بالفرنساوية، على (سارة) (Sara) حفيدة الملـك القوطي ويتيزا (Witiza) أو (Vitiza) المعروف عند العرب باسم: غيطشّة، وربما كان الرجل من نسلها.

ومثـل: ابن غرسية، وهو لقب لكثير من الأندلسيـين، منهم: الفقيه العَلّامة عبدالرحمـن بن أحمد. وهـذا اللقب إسباني محضـ: (Garcia)، وكان في القديم يُكتب هكذا: (Garsea) و(Garsia) و(Garseas) و(Garseanus)، ولا زال لقباً لعائلات إسبانية كثيرة.

ومثـل ذو الوزارتـين السرقسطي: ابـن غُنْدَشَلْـب، وكان صاحب جاه عظيم ونفـوذ كبـير في دولة بنـي هود بمملكة الثغـر الأعلى أي مملكـة سرقسطة، وله شعر جيد. وهذا الاسـم إسباني محض: (Gonzalez) و(Gonsalve) و(Gonzalo).. إلخ. ولا يزال لقباً لكثير من العائلات.

ومثل: ابن فُورِّتش، وهو لقب لبعضـ علماء الأندلس، ولاتينيته: (Fortis).. بمعنى: قويّ – شديد. ولا يزال لقباً لكثير من العائلات الإسبانية الآن.

ومثـل: ابن كُنْبَرَاط (Comparath)، وهو من أهل بلنسية العارفين بالطب، وعنـه أخـذ القاضي أبـو الوليد بن رشـد (Averroes) فيلسـوف الأندلس المشهور، وهذا اللقب إسباني محض.

ومثـل: ابـن ليون، لقـب لأبي عثمـان العالم الأديـب الناشئ بمدينـة المرية (Almeria)، ولأبيـه أبـي جعفـر من علمـاء الفلاحة المبرزيـن ومن شيوخ الوزيـر ابن الخطيب. وهـذه الكلمة إسبانية محضـة: (Leon)، تجيء من اللاتينيـة: (Leonis)، بمعنـى: الأسـد. ولا زالت لَقَباً لكثـير من العائلات الإسبانية الآن.

ومثـل: ابـن سلبطور، مـن مشاهير عُلمـاء الأندلس، وهذا اللقـب مستعمل إلـى اليوم، وهـو بالإسبانيـة: (Salvador)، وبالطليانيـة: (Salvatore)، وبالفرنساوية: (Sauveur)، ومعنـاه: المُخَلِّص، والمُنقذ، والمنجي. وهو عَلَم في العبادة عند النصارى على سيدنا عيسى عليه صلاة الله وسلامه.

ومثـل: ابن فيره، لقب العالم الأندلسي المشهور صاحب الشاطبية، وقد نَصّ ابن خلكان على أنه لقب إسباني معناه: الحديد. واعلم أنّ (الحديد) يسمى عند الفرنساويـين: (Fer)، وعند الطليانيين: (Ferro)، وكان يسمى كذلك في القديم عنـد أهل إسبانيا مشتقين له من اللفظة اللاتينية، ولكنهم اليوم حرّفوه، فلا يقولون (فِيِّرُه) (Ferro) إذا أرادوا ذكر الحديد بل يقولون من باب التحريف: (Hierro)، وهم لا ينطقون مطلقا بحرف (H) مقابل الهاء، ولكنهـم يقولون عن السكك الحديديـة: (Ferrocariles) و(Caminos de Hierro)، فترى أنّ كلمة (فيره) لا زالت باقية عندهم في بعض التراكيب.

ومثـل: ابن فورتون، وابـن مورجون، لكثير من علمـاء الأندلس، وهما لقبان إسبانيان محضان لا يزالان مستعملين إلى اليوم: (Fortun) و(Morejon).

وقـد اطلعتُ على أسماء كثيرة للأندلسيين وليست من العربية في شيء على الإطـلاق مثل: تومرت، وأنجلينـو، واشقيلولة، ومردنيشـن، وهمشك، وكثير غيرهـا. ولكنني لم يتيسر لي إرجاعها إلى أصولها الإفرنكية، وسأستوفي في ذلك في فرصة أخرى إن شاء الله.

ومن الأمـور التي يجب ذكرها تكملةً لهذه الكمالة أنّ أهل الأندلس المسلمين تفرّدوا بزيادة (الواو) و(النون) في آخر ألقابهم بخلاف المشارقة.

كما تفـرّد بعض الأَعَجَام بزيـادة (ويه) في: سيبويـه، ونفطويه، وعمرويه، وخالويـه، ومردويـه، ومزرويـه، وحيويه، وشاهويـه، ودرستويـه، وراهويه،

ورزقويه، ومادويه، وقاذويه، وشيرويه، وكلكويه، وحمويه، ورحمويه،.. إلخ.

وكما تفرّد الأرمن بزيادة (يان) و(آن) في آخر أسمائهم.

وكما تفرد الروس بزيادة (أوف) و(إيف)، ولا حاجة لإيراد الأمثلة هنا فإنها مشهورة سوى أني أقول: إنّ بعض أهالي إيران والجركس وغيرهم من التابعين الآن لروسيا ملزمين بإضافة (أوف) أو (إين) على أسمائهم، وقد لاقيت في المؤتمر عَالِماً فارسياً من هذا القبيل اسمه: (أحمد أغايف بك) أي (أحمد أغا بك).

واعْلَم أنّ نظير هذين الحرفين: (الواو) و(النون) أي (on) في اللغات الإفرنكية، وخصوصاً الإسبانية، إذا وُضعا في آخر كلمة إفرنجية أفاداها القوة والشدة والتفخيم، وكأني بالأندلسيين أرادوا هذا المعنى من باب التسامي على المشارقة، ومثال هذه الأسماء مضافة إلى لفظة (ابن):

بدرون. برون. بكرون. جبرون. جلفون. حبرون. حبنون. حضرون. حفصون. حكمون. حمدون. حنون. حيون. خلدون[1]. خلفون. خيرون. دحون. رزقون. زرقون. زقنون. زكون. زيدون. سجبون. سعدون. سلبون. سلمون. سمحون. سمجون. سهلون. شبطون (Xabaton). ضيفون. عبدون. عُبَيّدون (وفي

(1) أَذكر هُنا من باب التفكه أنّ أحد شعراء الأندلس وهو أبو علي المالقي هجا العلامة ابن خلدون بهذين البيتين:

يا شاعراً يتسامى — وجده خلدون

لم يكف أنك خل — حتى بأنك دون

وهذا شبيه بالشاعر الذي ذم نفطويه، والقائل أبو عبدالله محمد بن زيد بن علي بن الحسن الواسطي المتكلم المشهور، قال:

من سره ألا يرى فاسقا — فليجتهد أن لا يرى نفطويه

أحرقه الله بنصف اسمه — وصيّر الباقي صراخا عليه

قال ابن خالويه: ليس في العلماء من اسمه ابراهيم وكنيته أبو عبدالله سوى نفطويه، وهو بكسر النون وفتحها، والكسر أفصح، لقب بذلك لدمامته تشبيها له بالنفط.

هذا الاسم تصغير بالعربـي وتكبير بالإفرنجي). عجلون. عسلون. عفيون. عمرون. عيسون. عيشون. غدرون. غلبون. فتحون. فحلون. فرحون. قلمون. قنون. لطفون. وهبون. يسعون. يشعون. يحيون.

واعْلَم أن زيـادة (الواو) و(النون) تعـدّت أيضاً إلى بعضـ أسماء النساء، نذكـر لك اسم الشاعرة: نزهون، وهي من أشعـر نساء الأندلس، ومن أكثر المشتغلين بالنظـم بديهةً وإجادة. كانت تسكن بغرناطة، ولها واقعة حال مع شاعـر أعمى من المشارقة تدل على شـدة بديهتها حينما طارحته الشعر في حضرة أحـد الأمراء، ولولا ما فيها من بعض الإخـلال بالأدب لذكرتها من باب التفاخر بها، ولكن ذلك لا يمنع الطالب من البحث عليها في كتاب (نفح الطيـب) المطبوع في بولاق صحيفة 90 و91 و92 وأخبارها في صحيفة 1146 و1147 مـن الكتاب المذكور، وقـد أورد الضبي شيئاً مـن أشعارها في كتاب (بغيـة الملتمس في تاريخ أهل الأندلس) في صحيفة 530 (نمرة: 1588) من النسخة المطبوعة في مدريد سنة 1885.

ونذكر أيضـاً اسم شاعرة أخرى مشهورة، وهـي: سعدونة، فقد أضيف إلى اسمها علامة التأنيث.

والأغـرب من ذلك أن بعضهم أضاف على اسمـه حرفي (الواو) و(السين) وهمـا علامـة الانتهاء في اللغـة اللاتينيـة (Us)، ومثال ذلـك: أحمدوس. أنسوس. عبدوس. عمروس. طحلوس. طملوس. فالوس. فرعوس. فرغلوس. قبتروس. قبيلوس.

ومنهم مـن يُسَمّى (حمديس)، وهذان الحرفـان الانتهائيان هما أيضاً من خصائص اللغة اللاتينية (Is) كما لا يخفى على العارف.

واعلـم أنّ هذه الأسماء التـي ذكرناها هي أعلام لعلمـاء ترى تراجمهم في

كتـب ابن الأبار، وابـن الفرضي، والضبي، وابن بشكـوال، و(نفح الطيب)، وابن خلكان، و(دائرة المعارف)، و(آثار الأدهار)، ومجموعة القطع العربية للتي انتخبها العلامتان الإسبانيان لِرتشندي وسيمونيت (Lerchundi y Si-monet)، والمعجم العربي الذي ألحقاه بكتابهما المذكور.

واعلـم أيدك الله وأبقاك أنه لَمَّـا آل أمر بقاياهم بالأندلـس إلى منتهاه من التلاشي والاضمحـال، وتناسوا اللغة العربية وأساليبها مرة واحدة، أهملوا لفظـة (ابن) واستبدلوهما بعلامـة الإضافة في اللغة القشتالية وهي (دو)، فكانـوا يقولـون: (فلان دو فـلان) أي (فلان مـن) أو (ابن فـلان)، ولقد نبّهني بعض الفضلاء إلى أن الإفرنج قد يكونون استعملوا لفظة (de = دو) في إضافـة الأسماء والألقاب الخاصة بعائلاتهم الشريفة نقلاً عن استعمال العـرب اليمانيين الذيـن يستعملون لفظة (ذو = صاحـب) أمام أسمائهم، وإني وإنّ لم يتيسّـر لي استكمـال البحث واستيفاء المراجعة لا أرى مانعاً من الظـن بأنّ الإفرنج قد أخذوا ذلـك عن أهل اليمن، خصوصـاً وأن التبابعة والأقيـال كانـوا يوالون الغـزو في جهات الشمـال من آسيـا وفي بلاد فارس والهندوس، المحتمل أن كبار عائلات البـلاد التي أخضعوها أو مَرُّوا بها قد تَشبّهـوا بهم في التكنيـة بألقاب الشرف كما يحصل عـادة من تقليد الأمم المستضعفة للأمم القوية العلية الشأن.

ولا يجهـل الباحثـون الواقفون على ارتبـاط اللغات ببعضهـا أنّ بين اللغات الفارسية والهندية وبين اللغات الأوروباوية ارتباطات ومشابهات كثيرة جِدّاً فيما يتعلق بأصول الألفاظ والتراكيب النحوية والأساليب الصرفية وطرائق التعبير وغير ذلك من العلاقات والمناسبات التي لا تنكر.

وإني أذكر لك الآن أسماء بعض ملوك اليمن الذين تصدّرت ألقابهم بلفظة (ذو):

ذو الأدعار. ذو أصبح. ذو الأعواد. ذو جدن. ذو جيشان. ذو رعين. ذو رياش. ذو سدد. ذو شدد. ذو الشناتر. ذو الصرح. ذو ظلم. ذو فائش. ذو القرنين. ذو قلاع. ذو كرب. ذو كلاع. ذو مرثد. ذو المنار. ذو مهدم. ذو نفر. ذو نواس. ذو هجرس. ذو هرب. ذو يزن. ذو يمن.

وكذلك وردت أعلام جغرافية كثيرة في بلاد اليمن وغيرها مُصَدّرة بهذه الأداة (ذو)، ولعلي أستكمل البحث عن ذلك في فرصة أخرى.

ونرجع إلى الكلام على ما يتعلق ببقايا الأندلسيين في هذا الموضوع، فنقول: إنهم بعد أن تناسوا لفظة (ابن)، وصاروا يقولون (فلان دو فلان) استبدلوا لفظة (السيد) بالكلمة المقابلة لها في اللغة القشتالية: (الدون)[1] كما يفعل الآن بعض العوام من وضع كلمة (موسيو) الفرنساوية أمام الأعلام العربية في الكتابات والمخاطبات على ما هو مُشَاهَدٌ اليوم، ومثال ذلك عندهم: (الدون عيسى دوجابر) الفقيه الأكبر والمفتي بجامع شقوبية (Segovia) في سنة 1462 إفرنكية، فإنّه أَلَّفَ كتاباً جليلاً في الفقه الإسلامي باللغة الأعجمية (الألخميادو) التي سبق لنا الإشارة إليها، وقد طبعت هذا الكتاب (جمعيةُ التاريخ الملوكية) بمدريد في سنة 1853 (في الجزء الخامس من مطبوعاتها)، وعندي نسخة منه تدل على غزارة فضله وواسع علمه.

وقد بلغني من بعض العلماء أن بعض المراكشيين المتوطنين على الساحل يستعملون ذلك التلقيب اليوم.

والأغرب من هذا، وهذا ما بلغني في مدريد من بعض أهل السياحة والتحقيق، أنّ الأعراب البدويين المتوطنين في صحاري مراكش (أي بعيداً

---

(1) وهي مستعملة عند أهل إسبانيا في مقابلة (موسيو) عند الفرنساوية، و(سير) عند الإنكليز، و(سنيور) عند الطليانية. وهي مختصرة من كلمة لاتينية: «Dominus» ومعناها: الرب، والمولى، والسيد. وقد أطلق هذا اللقب في أوّل الأمر على سادات إسبانيا ثم على ملوكها ثم هو الآن لقب التعظيم فيها.

عن الساحل بمسافـات شاسعة تمنع خيال الظن بوجود أيّ تأثير للاختلاط مع أهل إسبانيا الآن) لا يزالون يستعملون هذه الطريقة في التسمية أي وضع كلمة (ذو) في المكان الذي يضع فيه بقية العرب لفظة (ابن) وهذا دليل على اتصال نسبتهم بالأندلسيين الذين أُخْرِجُوا من ديارهم.

هـذا وقد رأيت عند الدُّونْ بَابْلُو خيـل في سرقسطة حججاً شرعية وصكوك معامـلات ووقفيات مكتوبـة باللغة الأعجميـة (ألخاميادو) وفيهـا (الدُّنْيَا عائشة) أي السيدة عائشة، و(الدُّونْ فُلان) وهكذا.

ثـم أقـول من بـاب الاستطراد غـير متعرض في هـذا المقام إلـى استكمال البحـث، فإننـي أريد توفيته في فرصة أخـرى، إنّ الإسبانيين وقع منهم مثل مـا وقع من العرب، فإن النـاظر إلى أسمائهـم لا يعسر عليه أن يتعرف فيها أعلامـاً عربيـة قد يكون بعضها مأخـوذاً بالوراثة وبعضها عفـواً أو لمناسبة أخرى، ومثال ذلك:

(Codera) : وهو (قديرة) (ولايزال الحاج قديرة والحاج قدور من أسماء أهل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش).

ومثل: (Zaidyn) = زيدين.

و(Abad) أي عبّاد.

و(Alvarez) = الفارس.

و(Alvarez del Campo) أي فارس الميدان.

و(Baguer) = الباقر.

و(Morcira) = مريرة.

و(Sofi) = صوفي.

و(Ferran) = فران.

و(Almenara) أي المنارة.

و(Alcayde) = القائد.

و(Alcalde) = القاضي (ولايزال هذا اللقب عندهم مرادفاً للمحافظ والمدير وحاكم البلد كما كان يسمى عند العرب بالقاضي إذ له اختصاصات كثيرة في الشرع الشريف، ويسمى عند الفرنساوية (Alcalde) وإنّ كان الإسبانيون أضافوا لاماً (L) من باب التحريف في قولهم: (Alcalde) فإنّما ذلك لإظهار تفخيم الضاد).

و(Rabadan) = رمضان (الباء حلّت محل الميم العربية).

و(Nasarre) = نصار (والإسبانيون ينطقون بحرف (S) سيناً على الدوام مهما كان موقعه بين الحروف الأخرى).

و(Calaf) = خلف.

و(Maymon) = ميمون.

و(Alvaro) = البر.

و(Meaza) = معازة.

و(Alfageme) = الحجام.

... إلخ.

وهذه الأعلام كلها لأناس موجودين في إسبانيا الآن، رأيتُ بعضها في كتب الدلالات، وعرفتُ بعضهم بنفسي، ومَن ينظر إلى أعلام الإسبانيين الآن يرى في آخر أكثرها هذين الحرفين (Ez) وهما على ما تأكدته علامة على البُنُوّة، فكل اسم في آخره ذلك يكون معناه: ابن فلان، مثل: (Fernando)

أي فرِننــدو، ثم (Fernandez) أي ابن فرننــدو، وهكذا في جميع الأسماء، ولم أرَ ما يشبه ذلك في بقية اللغات الإفرنجية التي اطّلعت عليها.

نعم إنّ كثيراً من أسماء الإنكليز تنتهي بمرادف لفظة (ابن) وهي (سَن) أو (سون) (Son)، مثل: (ساموسلسن) و(روبرتسن) و(جونسن) ونحو ذلك، ولكنهــا لا تشعر بالدلالة على البُنُــوّة، وربما كان هذا المعنى مفهوماً منها في أوّل الأمر ثم تنوسي الآن مرة واحدة بخلاف ما هو في إسبانيا.

وهذا ما يدعوني إلى الظن بأنه أثر باق من آثار العرب الذين ينتسبون على الــدوام إلى الأب مع لفظة (ابن)، والذي يقــوي ذلك الظن أن هذه الزيادة في آخر الأعلام الإسبانية تشبه تمام المشابهة لفظة (زاده) و(أوغلي) التي تضاف على أواخر الأعلام التركية. والله أعلم.

الفصل السادس

التقرير الأوّل

عن الكتب التي في خزانة

الإسكوريال بإسبانيا[1]

(1) مخطوط دار الكتب المصرية رقم : 1114

مولاي ،...

أصبحـت خدمة المعارف في هذا العصـر العباسي[1] الزاهر فرض عين على كل مصري عرف ما لوطنه عليه من الواجبات، وكان له في سيرتكم المبرورة ومساعيكـم المشكـورة خير قدوة وأحسن أسوة تحملـه على المواظبة في هذا السبيـل المحمـود، وقد اعترف لكـم الخاص والعام ببـذل كل ما في وسعكم لتقدم المعارف وترقية الفنون، ولذلك رأيت من المفروض عليّ نحو وطني أن أستلفت أنظار دولتكم إلى مسألة علمية مهمة علّها تنال من التفاتكم العالي ما يجعل لكم حسنة عمومية على سائر الأمة العربية.

ذلـك أنني لَمَّا تشرفـت في العام الماضي مِنْ قِبَلِ الحكومـة الخديوية الجليلة بالنيابـة عن مصر في مؤتمـر المستشرقين التاسع دعـاني حُبّ الاطلاع على الفوائد العلمية والمحسنات العصرية، والرغبة في الوقوف على آثار العمران، ألا أقتصـر علـى التوجه إلـى لوندرة مباشـرة والعودة منها تـواً من غير أن أستخـدم هذه الفرصـة النادرة في الاستفادة بكل ما يصـل إليه حد إمكاني أثنـاء وجـودي بأوروبا، مـن غير نظر إلى تعـدد المشقات وتنـوع الأخطار أو كـثرة المصرف وزيـادة النفقات، فكلّفـت نفسي ما هو فـوق طاقتها، وطفت أقطـاراً كثيرة وممالك متعـددة، ودخلت في بلاد لم يسبقنـي إليها أحد من أبناء المصريين، وأخصّها بلاد الأندلس (إسبانيا) والبرتقال، وكانت همتي منصرفـة بنـوعٍ خصوصي إلى رؤيـة خزائن الكتب وما فيهـا من مصنفات العـرب التي ليس لهـا نظير في بلادنا، وقد علقت عليهـا كثيراً من المفكرات والمذكرات بقصد الكلام عليها في رحلتي، ولكنني دهشت كل الدهشة لما رأيته من كثرة المؤلفات الحافلة والتحف الفريدة الوحيدة التي لا تزال محفوظة في

(1) نِسبةً إلى الخديوي عباس. (ر.ع.)

دير الإسكوريال[1] بالقرب من مدينة مدريد، فإنّ كثيراً من الكتب التي فيه ليس لها ثان في العالم كله، وذلك هو الذي حملني على تحرير هذا التقرير، واستنجاد هِمّة الحكومة المصرية الآخذة بناصر المعارف، وخصوصاً ما يتعلق بالأمة العربية، حتى يكون لها في هذا الباب يد بيضاء مثل ما أسدته للعلماء مساعدة لهم على البحث والريادة والاستكشاف وغير ذلك.

وإني أذكر لدولتكم عبارة وجيزة عن تاريخ هذه المكتبة لإعلامكم بقدرها، وكيف أنها بقيت إلى الآن محوطة بالعناية من غير أن يمسسها أحد بسوء كما حصل لغيرها من الآثار العربية المتنوعة.

لَمَّا تضعضعت دولة العرب في أواخر عهدهم بالأندلس، واضمحل أمرهم بسبب تنافسهم فيما بينهم وتشاحنهم وتحاقدهم على بعضهم، وصار الإسبانيون يُخرجونهم من ديارهم، أخذ الكثير منهم ينزحون إلى بر العدوة (مُرَّاكُش)، ويرسلون إليها ذخائرهم وأعلاقهم وتحائفهم ونفائسهم حرصاً عليها واستبقاء لها، ولكنهم بسبب توالي الحروب والانكسار وضعف الدولة لم يتمكنوا من استنقاذ كل هذه الكنوز العلمية الثمينة، فكان ما أرسلوه إلى مراكش شيئاً زهيداً جداً في جانب ما بقي بالأندلس، إذْ من المعلوم أن خلفاء المغرب كانوا يبثون وفودهم في جميع الأقطار العربية لمُشترى الكتب المفيدة التي تظهر فيها، وكانت المواصلات مستديمة بين علماء الأندلس والمشرق، يذهب كل فريق منهم إلى وطن الآخر، ويترتب على هذه المواصلات ظهور كتب ذات قيمة عظيمة متضمنة لأبحاث متنوعة، وكان أهل الأندلس يجمعون هذه الكتب كلها في خزائنهم العمومية لإفادة الأمة وتنوير أذهانها حتى بلغ

(1) هذه الكلمة الإفرنجية محرفة عن الاسم العربي التي كانت تعرف به هذه الناحية في أيام العرب وهو (الصخور والصخورية) فإن عجم إسبانيا حينما أرادوا النطق بها قالوا: إسكوريا ، وسأشرح ذلك بتفصيل أطول في قاموس تحرير وضبط الأعلام الجغرافية.

عــدد المكتبات العمومية فيها وحدهــا سبعين مكتبة، وفي ذلك الوقت لم يكن في الإمكان أن مثل هذا العدد من المكتبات يوجد في بقية العالم.

ونشير الآن إلى بيان إحدى هذه المكتبات وهي المروانية التي كانت في قرطبة. فقد قال المؤرخون إنها كانت مرتبة بحسب العلوم والمعارف، وكان على جميع الغــرف والدواليب كتابــات جميلة لبيان الكتب الموجودة فيهــا وأنواع العلوم المتضمنــة لها، وكانــت الفهارس شاملــة لأسماء الكتــب والمؤلفين وعائلتهم ووطنهم وسنة ولادتهم وتاريخ وفاتهم، كل ذلك بغاية الضبط والدقة، وكانت فهارســ هذه المكتبة عبارة عن 44 مجلداً كُلّ واحد منها في 55 ورقة، وكانت إدارة هــذه الكتبخانة موكولة إلى عهــدة شقيق الخليفة يُدَبِّر أمورها ويسهر علــى تقدّمها، فكانت هذه الوظيفة مُعَبّرة عندهــم كأوّل منصب في الدولة، وقــد قال العارفــون إنّ عدد الكتــب التي كانت فيها بلغــت 600.000 كتاب. والدولة الفرنساوية مع كل ما بذلته من الجهد بعد هذا العهد بأربعمائة عام لم تتوصل لجعل مكتبة باريس الأهلية تحتوي على أكثر من 900 كتاب، وثلث هذا القدر عبارة عن كتب دينية محضة.

ولكــن هذه الكنــوز العقلية كلها تلاشت مع سطوة العــرب، وأصبحت كأمس الدابــر لا وجود لها، بحيث يصح أن يُقال إنّ هذه الأمة المجيدة اندثرت ولم يبــق لها أثر يشهد بعظمتها سوى بعض البقايــا من المباني وقليل من الكتب التــي كادت تدخل أيضــاً في خبر كان، وذلك لأن الإسبانيــين أيام مقاتلتهم العرب لم يكونوا على شيء من التمدن، بل كانوا أشد من التتار في إعدام كل ما يقــع بأيديهم من آثار أخصامهم، استنكاراً لهــا واستنكافاً منها، ومثال ذلــك أنه بعد إخراج العرب من غرناطة أحضــر الإسبانيون كميات عظيمة مــن الكتب من جميع أنحــاء الأندلس، قال مؤرخو العصــر بأنها تبلغ مليون كتاب، ثم أحرقوها باحتفال مشهود قائلين إن هذا من أجلّ أعمال الإيمان.

وكان مجـرد وجود الحروف العربيـة في أيّ كتاب يكفي عند القوم للقول إنه هو القرآن وحسبهم ذلك لإحراقه بالنار في الحال، يستوي في ذلك عامتهم وخاصتهم وجهلاؤهم وعلماؤهم.

وقـد ذكر فليشييـه صاحب ترجمـة حيـاة الكردينـال اكسيمينيس في باب فضائلـه ومآثره ومفاخـره أن هذا الكردينال في سنـة 1500 أحرق بيده في غرناطـة باحتفال مشهـود أكثر من خمسـة آلاف قرآن وكتـاب عربي حتى إنّـه لم يستثن من ذلك التجليد مع ما فيه مـن الإتقان والصحائف المذهبة والمنقوشـة بالفضة والصـور العجيبة التي تجعل لها قيمة فـوق العقل، وأنه استمـر على مثل ذلك حتى بلغ ما أحرقه ثمانين ألف مجلد وزيادة. وقد قام بعض المؤرخين في هذا الزمـان يدفعون عنه ما قاله مؤرخـو ذلك العصر، ونحـن لا نبحث في ذلـك وإنّما يعنينـا أن نعرف أن الزمان أبـاد مصنفات العرب في تلك الأقطار إلّا القليل الذي اسْتُخْلِصَ منها إلى أفريقية.

فأمّـا ما أرسله العـرب إلى تونس فقد أحرقه جنود الملك شارلكان عن آخره حينما هجموا على تونس في سنة 1526 ونهبوها. وأما ما أُرْسِلَ إلى مراكش فانقسـم إلى قسمـين: أحدهما لا يزال محفوظاً بها إلـى اليوم، وأمّا الثاني -وهـو الأهـم- فقد عاد للوقـوع في أيدي الإسبانيـين في النصف الثاني من القـرن السابـع عشر، فـإنّ مكتبة مولاي زيـدان سلطان مراكـش، وعددها عشـرة آلاف مجلد تقريبا، كانت موجـودة في سفينة حربية لسبب لا أدريه، وتصادف أن مراكب الإسبانيين ضبطت تلك السفينة، ولكن القوم لم يعملوا على عادة أسلافهم من المبادرة إلى الإحراق تقرُّباً للّه، بل أودعوها في قصر الإسكوريـال برمتهـا، وكان الإسبانيـون حينئـذ قد بلغوا درجـة من التقدم وتنبهوا لتلك الأغلاط الفاضحة فحافظوا على هذه الكتب كما ينبغي، ولكن الدهـر لم يعاملها بمثـل هذا الإحسان إذ سقطت عليهـا صاعقة في 7 يونيو

سنــة 1671 فأحرقت منها نحو ثمانية آلاف مجلد، ومن سوء الحظ أن ذلك كان قبل أن تُعرف أسماء هذه الكتب، وقبل أن يشتغل أهل أوروبا بتعلم اللغة العربية واستخراج الثمرات الجليلة التي في هذه الغنيمة العلمية الفريدة.

ولَمَّــا وَصَلَ إلى علم السلطان مولاي زيدان خبر استيلاء الإسبانيين على هذه المكتبة بعث إليهم يتهدّدهم بالحرب إن لم يردوها، فأوهموه أنهم مستعدون لإجابــة طلبــه إذا أنفذ لهم مآربهم، فَقَبِلَ، ثم امتنعــوا عن التسليم، وكانت حالة دولته لا تمكنه من إجراء أكثر من ذلك.

فهذه الخلاصة الوجيزة شاهد متين، وبرهان مبين على ما في هذه الخزانة مــن النفائســ التي يصح بل يجب بذل النفيســ في اقتنائها إذ من ضمن ما فيهــا نحــو خمسمائة كتاب عربــي ليس لها وجود في سواهــا، وكلها في علوم الحكمــة والفلسفة والأدب والجغرافيا والفلك والطب والتاريخ والفقه واللغة ونحو ذلك مما لا يدخل تحت حصر.

ولكــي أقيم البرهان على ذلك مــن جهة أخرى، أذكر أن الحكومة الإسبانية استحضــرت في عهــد الملك كارلوســ الثالث رجلاً من موارنــة الشام اسمه قصــيري[1] وأغدقت عليه نعمهــا وبذلت له المال الجزيل وكلّفته بترتيب هذه

---

(1) الصــواب: الغزيــري، والمذكور هو ميخائيل الغزيــري (Michael Casiri)، مــاروني، ولِدَ سنة 1710م في بلــدة غزارة، ولايــة طرابلس بلبنان، سافر إلى روما ودرس بها الفلسفــة واللاهوت واللغات الغربية، ارتســم في سلك الكهنوت سنة 1734م، وزاول هناك تدريس اللغات العربية والسريانية في دير الرهبان الحلبيــين، وفي سنــة 1749م انتقل إلى مدريــد وعمل بمكتبة دير القديس لورنــزو بالإسكوريال، وأنجز فهرساً لمخطوطاتها العربية. ترجم عدة نصوص دينية وأدبية. توفي في مدريد سنة 1791م. انظر:

– بولس مسعد، أعلام النهضة الحديثة: ميخائيل الغزيري. مجلة (الكتاب)، السنة 4، المجلد 7، الجزء 4، أبريل 1949، ص.571 575.

P. Massad، Casiri y uno de sus estudios inéditos، In: Boletín de la Real Academia – .48–de la Historia، 1959، 144، 15

(ر.ع.)

المكتبة وتحرير فهرست لها، فأقام بالدير من سنة 1749 إلى سنة 1752 لإنجاز هذا العمل. ثم في سنة 1760 ألّف الفهرست في جزءين[1] ضخمين باللغة اللاتينية وكانت لغة أهل العلم في ذاك العهد، وقد وقع فيها بعض أغلاط ولكنها لا تضيع شيئاً من حسنات الكتاب ولا من فوائده لاسيما وأنه أوّل من فتح الباب.

وأورد الآن دليلاً ثالثاً وهو أن الحكومة الفرنساوية أرسلت في سنة 1880 الموسيو درنبورج إلى إسبانيا ليدرس الكتب العربية فيها ويقدم عنها تقريراً لها، وتحمّلت مبالغ جسيمة لإنجاز هذه المأمورية. وقد شاهد مندوبها الأغلاط الواردة في فهرست قصيري فدعاه ذلك لتحرير فهرست جديد باللغة الفرنساوية، ظهر الجزء الأوّل[2] منه في سنة 1884 إفرنكية متضمناً ذكر 708 كتاب في النحو وعلوم البلاغة وفنون الشعر وعلوم اللغة والأدب والفلسفة، ولم يظهر الثاني إلى الآن[3].

وهناك حُجّة رابعة تؤيد أهمية هذه المكتبة وهي أن الدولة العلية أرسلت منذ بضعة سنين أحد العلماء[4] الأفاضل لنظر الكتب الموجودة في إسبانيا،

---

(1) طبع الجزء الأوّل سنة 1760م، وطبع الجزء الثاني سنة 1770م، انظر:

- Bibliotheca arabico-hispana Escurialensis، Madrid، 1760-1770، 2 in-folio، volumes.

(2) طُبع الجزء الأول سنة انظر:

- Hartwig Derenbourg، Les manuscrits arabes de l'Escurial. Ernest Leroux ; Paul Geuthner، Paris.1884

(3) طُبع الجزء الثاني من هذا الفهرس سنة 1903م.

(4) أرسلت (نظارة المعارف العمومية السلطانية) بالأستانة إلى إسبانيا سنة 1304هـ/1887م عالمين للنظر في المخطوطات العربية بالإسكوريال، أحدهما هو الشيخ محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي (ت. 1322هـ/1904م)، وقد ترجم له صاحب (الوسيط في تراجم علماء شنقيط) ونَصّ على أن له رحلة إلى إسبانيا بشأن المخطوطات العربية بالإسكوريال. والثاني هو علي بن سالم الورداني (ت. 1333هـ/1905م)، انظر ترجمته عند: (خير الدين الزركلي، الأعلام، ج.4 ، ص.290).

وللورداني ترجمة محررة من قبل الشيخ حسن حسني عبدالوهاب في كتاب (ورقات عن الحضارة التونسية) (ج.2 ، ص.461-466) أشار فيها إلى رحلته الإسكوريالية، ثم ذكر أنه لما رجع إلى تونس نشر كتابه

وصرفت عليه المبالغ الجسيمة، ولكن هذه المأمورية لم تترتب عليها نتيجة فعلية مع أن العالم الذي أرسلته أشار إلى وجوب الاهتمام بالكتب التي فيها إنقاذاً لها وإحياءً لآثار العرب.

وليس في وسعي أن أورد الشواهد بذكر الكتب في هذا التقرير الموجز، ولكن لَمَّا كان ما لا يُدرك كله لا يترك كله رأيت أن أكتفي بسرد مثال واحد في التاريخ وآخر في اللغة.

فأمّا الأوّل، فهو الكثير من كتب لسان الدين بن الخطيب وزير الأندلس الذي ألّف المقَّري في حقه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب)، ومن جملتها كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) وتكملته. نعم إنّه يوجد في الكتبخانة الخديوية جزء صغير من هذا الكتاب الجليل، ولكنه بِخَطٍّ مغربي سقيم مُحَرَّف مُشَوَّه بحيث إن فكّ الطلاسم وحلّ الرموز أسهل من قراءته بما لا يقدر.

وفي الإسكوريال أيضاً: جزءان من كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) الذي صنفه النويري (من أهل مديرية بني سويف) في ثلاثين جزءاً، وهو من الموسوعات المعتبرة الحاوية لجميع العلوم، ولا يوجد في الكتبخانة المصرية سوى جزء واحد منه، وتوجد في باريس بعض أجزاء مكملة لنفس النسخة

(الرحلة الأندلسية) تباعاً في 28 عدداً من جريدة (الحاضرة) الأسبوعية سنة 1305هـ/1307هـ. وحلقات هذه الرحلة هي التي جمعها وحقّقها وقدّم لها عبدالجبار الشريف، ونشرتها له الدار التونسية للنشر سنة 1984م. وبذيل هذه النشرة أثبت المحقق (لائحة الكتب المنتخبة من مكتبات إسبانيا)، وفي الحقيقة أن الأمر لا يتعلق إلا بمكتبة الإسكوريال ومكتبة مدريد الوطنية، وقد تبيّن بعد البحث أنّ لائحة الكتب التي وردت بذيل (الرحلة الأندلسية) للورداني ليست من تصنيفه، وإنما هي من وضع رفيقه في الرحلة الشيخ محمد محمود الشنقيطي. ومخطوطة هذه اللائحة كانت في رصيد مكتبة الشيخ حسن حسني عبدالوهاب ثم دخلت إلى المكتبة الوطنية بتونس وسُجِّلت تحت رقم: 18675 ، وهي منشورة بكاملها في الشبكة العنكبوتية من لدن عبدالرحمن بلحاج علي سفيرُ تونس بنواقشط. وقد سبق أن ذكرت هذا في كتابي (تاريخ المدرسة النصرية بغرناطة) منشورات دار جداول – بيروت.2015م (48–51). (ر.ع.)

التي في الكتبخانة الخديوية، وجزء آخر بكتبخانة برلين.

والمثال الثاني يتعلّق باللغة العربية، وأستشهد الآن بالجزءين الباقيين هناك من كتـاب (المُخَصّص) للعَلّامة اللغوي الضرير بـن الضرير أبي الحسن المعروف بابن سيده المتوفى سنة 458 (وقد تكلمت عن هذا الكتاب على حدته في التقرير الثاني ولذلك أكتفي هنا بمجرد الإشارة).

ومِمّـا يوجـب على حكومتنا السَّنِيّـة الالتفات إلى هذا الأمر كـثرة اهتمام أهل ألمانيـا وأمريـكا وإنجلترة وإيطاليـا وروسيا وفرنسا وهولانـده وغيرها بإحياء مؤلفـات العرب، وبـذل الأمـوال الطائلة للوصـول إلى هذا الغرض، وهو أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، وإنّما أذكر ما عرفته بنفسي أثناء سياحتي من عناية إسبانيـا بهذا الشأن على عجز ماليتها، فإنني متأكد بأنهم لو كان في خزانتهم أكـثر أجـزاء (المُخَصّص) وعندنا الأقـل لكانوا يبـادرون باستنساخ ما عندنا لتكملـة الفائدة عندهم، فإنهم يشترون من جميع الأقطار العربية جميع الكتب التـي ألّفها علمـاء أندلسيـون في أي موضوع على الإطـلاق، ويستنسخونها إذا لم يكـن في الإمكان مشتراها، وكذلك يفعلون بالكتـب التي ورد فيها كلام على الأندلـس وأهلها مـن غير نظر إلى أصل مصنفها. وما أجـدر حكومتنا السنية بمجاراتهـم في هذا الأمر المفيد الذي يوجب عليهـا استنساخ بقية الأجزاء من موسوعـات النويري المصري المحفوظة في الإسكوريال وفي مكتبة باريس وبرلين الأهليتين، وغير ذلك من الكتب المُفيدة والنادرة.

ومـمـا يستحـث الحكومـة المصريـة -أعلـى الله منارها- على مجـاراة الدول الغربيـة في هذا الموضوع الخاص بِنَا أننـي أشفق على هذه الكتب النفيسة التي بالإسكوريال أن تضيع من الوجود مرة واحدة بعامل الإهمال والطوارئ الطبيعية كمـا سقطـت عليها الصاعقة في سنة 1671 فأحرقت منهـا نحو الثمانية آلاف مجلـد، ولم تبـق إلّا أقل من ألفين، فكانت نتيجة ذلك خسارة عظمى على الأمة

العربيــة أوّلاً وعلى العالم المتمدن ثانيــاً. ولا مانع من التخوف من ذهاب القليل الباقي بصاعقة ثانية أو حريقة غير منتظرة أو بأية آفة أخرى.

وإذا نظرنــا إلــى الوسائط الماديــة والمعنوية التي تسهل لنــا الحصول على هذه الذخائــر بعينها لا على مجرد أسمائها وتقرير عــن أحوالها نجد أنّنا لا نحتاج لإنفاق عشر معشار ما أنفقته تلك الدول الأجنبية.

والــذي أتقدم بعرضــه على نظركم العالي هو تعيــين إرسالية مركبة من رئيس وعشرة نَسَّاخِــين ورَسِيم يكون عارفاً بِفَنِّ الفوتوغرافيا، وتتوجه هذه الإرسالية إلــى إسبانيــا لنسخ الكتب اللازمة المعدومة من مصــر والتي لم يحصل طبعها في أوروبــا إلى يومنا هذا، ثم تعود بها فتباشــر الحكومة طبع ما يلزم، وتحفظ الباقــي في كتبخانة درب الجماميز، وتكون مــدة مأمورية هذه الإرسالية عبارة عن ثلاثة شهور ونصف فقط.

ولكنــه ينبغــي دقة الالتفــات في انتقــاء الأشخاص الذين تتألــف منهم هذه الإرساليــة، بحيــث يتمكنــون من القيــام بهذه المأموريــة وفق المــرام. فأمّا الرئيــس فــإني أرى أنه ينبغــي انتخابه مــن المصريين المطلعــين على نوادر الكتــب، العارفين بأحوالها، بحيث يكون له إلمام باللغة الإسبانية لكي يتمكن مــن مخالطة أهل البلاد والاستفادة مــن معلوماتهم والاستيثاق بمعاونتهم، وهــذه اللغة ضروريــة جداً لضمانة راحــة النساخين الذيــن لا يعرفون غير العربيــة، فــإن ذلك أمر لا بد منــه لإنهاء المأمورية حســب اللازم بما يكون للرئيــس من العلاقــات الودية الشخصية مــع علماء إسبانيــا وأهلها وتمام خبرته بأحوال الكتب ومعرفته بتلك البلاد، فإنه إذا لم تتوفر هذه الشرائط في رئيــس الإرسالية لضاع منها زمن عظيم في الأعمــال التمهيدية للوصول إلى هذه الغاية المقصودة في أقطار مجهولة.

أمــا النَّسَّاخُون فلا أرى طريقة أنجع مــن اختيارهم من ضمن طلبة دار العلوم

النابغين، يذهبون بإرشاد رئيس الإرسالية إلى الإسكوريال وهو يتعهد براحتهم في المسكن والمطعم وغير ذلك من لوازم المعيشة المنتظمة، وهم أقدر من غيرهم على إجادة الاستنساخ مع الدقة اللازمة، ويكون اشتغالهم هناك في مدة المسامحة.

وأمّا المسألة المالية فللحكومة الخيار في حَلِّهَا على الوجه الذي ترتضيه، وإنّما أقول إن أحسن طريقة هي تسليم رئيس الإرسالية مبلغ 600 جنيه أو 700 جنيه للإنفاق منه، وهو ليس بالشيء الكثير في جانب الفوائد العظيمة التي تعود من الإرسالية على ترقية المعارف، وأقلّ ما فيها أنّ الحكومة تُساعد على تنوير أذهان طلبة دار العلوم برؤية البلاد الأوروباوية وخصوصاً التي كانت فيها حضارة العرب وممالكهم، ولازالت آثارهم باقية فيها إلى الآن، فإنهم يَستفيدون ويُفيدون بهذه الواسطة أكثر بكثير مما ترتّب على سياحتهم في الوجه القبلي في العام الماضي.

وينبغي أن يُضاف عليهم رجل من المتمرنين على نسخ الكتب القديمة للاستفادة بممارسته لهذا النوع من الأعمال والمراقبة.

وأمّا لزوم الرَّسِيم فلأنه قد يكون في بعض هذه الكتب حِليات ورسوم ونقوش ينبغي المحافظة عليها وأخذ صورتها منها إحياء للصناعة والفنون العربية، كما أنّ الفوتوغراف يُستعان بها على أخذ صور بعض الصفحات وبعض المباني والمصنوعات العربية النادرة في بلادنا الكثيرة في هاتيك الأقطار.

وإنني أعتقد بأن هذه الأماني الوطنية الملية تصادف لدى دولتكم مكاناً من القبول نظراً للفوائد الكثيرة التي يترتب تحقيقها على يد دولتكم أبقاكم الله ذخراً لمصر وكهفاً للمعارف وأهلها على الدوام إن شاء الله.

تحريراً بالقاهرة في 25 مايو سنة 1893 مترجم مجلس النظار

أحمد زكي



تقريران

مقدمان الى دولة مصطفى رياض باشا

رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية والمعارف العمومية

التقرير الاول

عن الكتب التي في خزانة الاسكوريال باسبانيا

مولاى

أصبحت خدمة المعارف فى هذا العصر العباسى الزاهر فرض عين على كل مصرى عرف مالوطنه عليه من الواجبات وكان له فى سيركم المبرورة ومساعيكم المشكورة خير قدوة وحسن أسوة تحمله على المواظبة فى هذا السبيل المحمود وقد اعترف لكم الخاص والعام ببذل كل مافى وسعكم لتقدم المعارف وترقية الفنون ولذلك رأيت من المفروض على نحو وطنى أن استلفت أنظار دولتكم الى مسئلة علمية مهمة علها تنال من التفاتكم العالى مايجعل لكم حسنة عمومية على سائر الامة العربية

الصفحة الأولى من التقرير

تساعد على تنوير اذهان طلبة دار العلوم برؤية البلاد الاوروباوية

وخصوصا التي كانت فيها حضارة العرب وممالكهم ولازالت آثارهم

باقية فيها الى الآن فانهم يستفيدون ويفيدون بهذه الواسطة اكثر

بكثير مما ترتب على سياحتهم في الوجه القبلي في العام الماضي

وينبغي ان يضاف عليهم رجل من المتمرنين على نسخ الكتب

القديمة للاستفادة بممارسته لهذا النوع من الاعمال والمراقبة

واما لزوم الرسيم فلانه قد يكون في بعض هذه الكتب حليات ورسوم

ونقوش ينبغي المحافظة عليها واخذ صورتها منها احياء للصناعة والفنون

العربية كما ان الفوتوغراف يستعان بها على اخذ صور بعض الصفحات

وبعض المباني والمصنوعات العربية النادرة في بلادنا الكثيرة في

هاتيك الاقطار

واني اعتقد [illegible] هذه الاماني الوطنية الملية تصادف لدى دولتكم

مكانا من القبول نظرا للفوائد الكثيرة التي يترتب تحقيقها على يد دولتكم

ابقاكم الله ذخرا لمصر وكهفا للمعارف واهلها على الدوام ان شاء الله

تحريرا بالقاهرة في ٢٥ مايو ١٨٩٤

مترجم مجلس النظار

احمد زكي

الصفحة الأخيرة من التقرير

لائحة المصادر والمراجع

1 - أنور الجندي، أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة. سلسلة أعلام العرب (29)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي - القاهرة.1963م.

2 - أحمد زكي باشا، السفر إلى المؤتمر (وهي الرسائل التي كتبها على أوربا)، (ط.2) بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية 1311هـ/1894م.

3 - إبراهيم عبده، جريدة الأهرام.. تاريخ وفن 1875-1964، مؤسسة سجل العرب - القاهرة.1964م.

4 - إميليو غارثيا غوميث ودوره الاستشراقي، حوار أجراه خالد سالم في مجلة (الوحدة)، العدد 61-62 ، أكتوبر / نوفمبر 1989م — ربيع الأول / ربيع الثاني 1410هـ، ص.170-171

5 - ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.1415هـ.

6 - أبو العباس أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت.1388هـ/1968م.

7 - أحمد عبد اللطيف حنفي، المغاربة والأندلسيون في مصر في الإسلامية (من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي (21هـ-567هـ)، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة.2005م.

8 - أبو عبد الله محمد الراعي، الأجوبة المرضية، تحقيق: سلامة عبد القادر المراغي، رسالة ماجستير - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، مكة المكرمة.1400هـ/1401هـ.

9 - أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق: عبد الحميد الهرامة منشورات دار الكاتب - طرابلس الغرب.2000م.

10 - خير الدين الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، ط.17، دار العلم للملايين - بيروت.2007م، ج.1 ، ص.126-127

11 - ديوان ابن خفاجة، تحقيق: سيد غازي. (ط.2)، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية (د. ت.).

12 - رشيد العفاقي، زقاق القناديل.. حارة الأندلسيين بالقاهرة، مطبعة طوب برس - الرباط.2017م.

13 - رشيد العفاقي، تاريخ المدرسة النصرية بغرناطة. منشورات دار جداول - بيروت.2015م.

14 - الرسائل المتبادلة بين شيخ العروبة أحمد زكي باشا والأب أنستاس ماري الكرملي. حققها وعلق عليها: حكمت رحماني. منشورات شركة نوابغ الفكر - القاهرة.1434هـ/2013م.

15 - شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة - (ط.9) بيروت.1413هـ/1993م.

16 - شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني، الفتح المواهبي في ترجمة الإمام الشاطبي، تحقيق: إبراهيم بن محمد الجرمي، دار الفتح - عمّان (الأردن).1421هـ/2000م.

17 - علي بن سالم الورداني، الرحلة الأندلسية. جمعها وحقّقها وقدّم لها: عبد الجبار الشريف، الدار التونسية للنشر - تونس.1984م.

18 - عبد السلام هارون، قطوف أدبية (دراسات نقدية في التراث العربي)، منشورات (مكتبة السنة) القاهرة — 1409هـ/ 1988م.

19 - الشيخ محمد محمود الشنقيطي، لائحة الكتب المنتخبة من مكتبات إسبانيا، مخطوطة المكتبة الوطنية بتونس رقم: 18675.

20 - محمد العمارتي، إميليو غارثيا غوميث (1905-1995). إصدارات مجلة (العربية) (178) - الرياض.1435هـ.

21 – Ahmed Zequi، Mémoire sur les relations entre l'Egypte et l'Espagne، pendant l'occupation musulmane. In : Homenaje à D. Francisco Codera En Su Jubilacion Del Profesorado، Zaragoza.1904، pp.455481–

22 – Libro de firmas de la Alhambra. 29 de abril de 1890 – 21 de febrero de 1896. (manuscrito conservado en el Patronato de la Al–Hambra y Generalife).

تراثنا العربي حافل برجاله المبدعين، وإن ظل معظم هؤلاء الرجال مجهولين أحياناً، لا سيما بالنسبة للأجيال الجديدة التي باتت مطلقة مع ماضيها، وحتى إن وجدنا فئة من مثقفينا قد بقيت مرتبطة بثقافتها القومية إلا أن معرفتها ضيقة بأولئك الرجال المبدعين وربما لا تتسع حتى لبعض الأعلام البارزين.

في هذا الكتاب ستكون لنا وقفة مع أصيل من أصلاء الثقافة العربية الإسلامية، وقفة مع رجل كان شعاره في الحياة (ولي كل يوم موقف ومقالة). إنه العلامة أحمد زكي باشا المعروف بشيخ العروبة.

لقد كان هذا الرجل في زمنه أشهر من نار على علم، ولذلك يجد القارئ ترجمته في العديد من الكتب والموسوعات، إلا أنه مع ذلك لا تزال بعض الجوانب من خدماته وأعماله بحاجة إلى تجلية وزيادة بيان.

سنحاول في هذا الكتاب أن نبرز الخدمات التي أسداها لتراث الأندلس، سالكين في ذلك خطة ترمي إلى نشر بعض نصوصه في هذا الموضوع.